



جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم الحضارة الإسلامية



توضيف النحو وفي إقرأ الدرر التفسيري
عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره:
"مجالس الذكر من كلام الحكيم الخبير"

مذكرة تخرج تدخل ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماستر

في العلوم الإسلامية - تخصص: لغة ودراسات قرآنية

المشرف:

د. إدريس ريمي

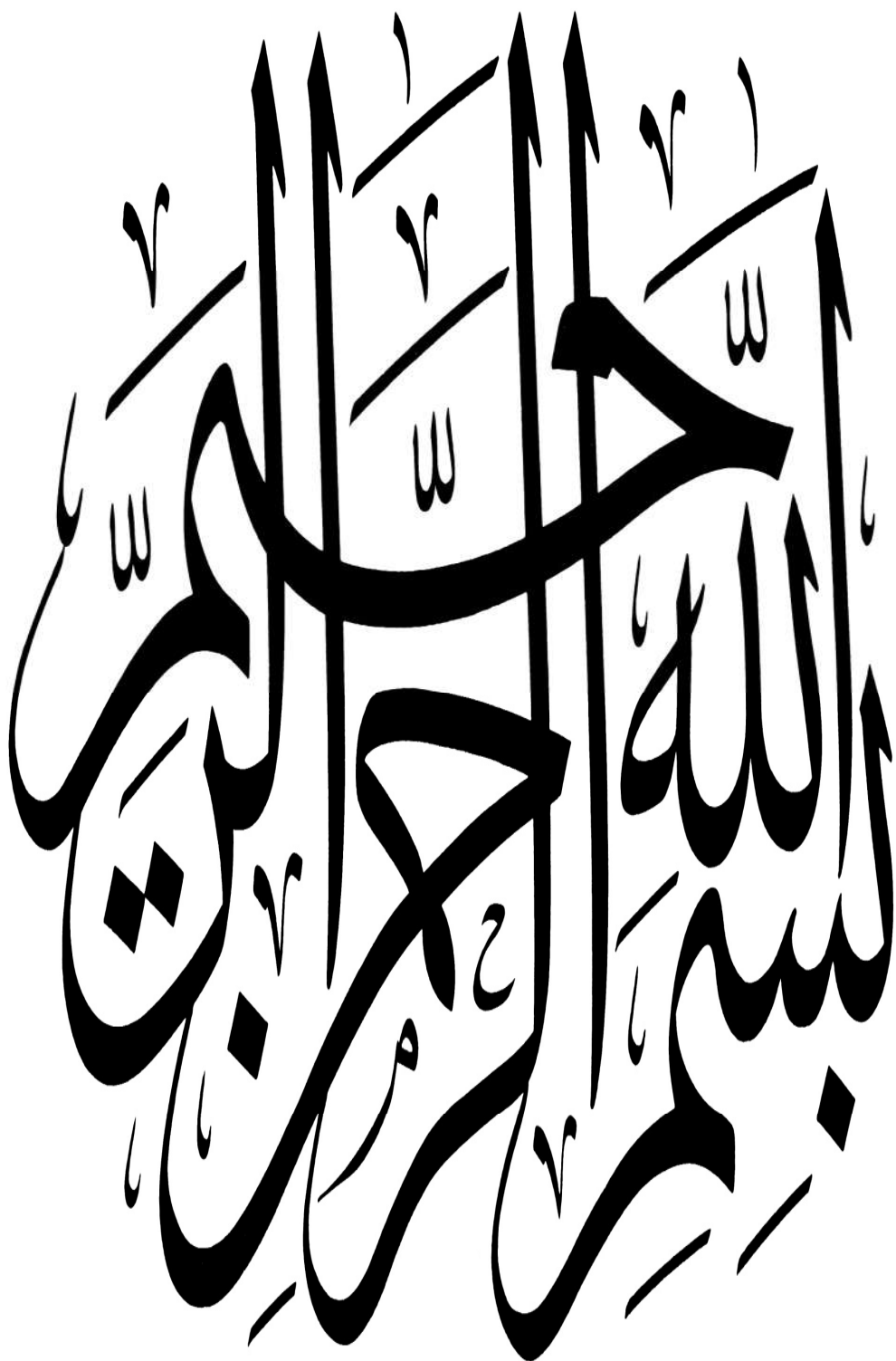
الطالب:

أسامة حرّاث

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د. العيد حديق	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي	رئيسا
د. إدريس ريمي	أستاذ محاضر (ب)	جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي	مشرفا ومقررا
أ.د. قويدر قيطون	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي	عضوا

السنة الجامعية: 1441-1442هـ / 2020-2021م



الإهداء

إلى روح الأستاذ
الرئيس، عبد الحميد
بن باديس،
وإلى رفيق دربه في
الإصلاح والكفاح،
العلامة محمد
البشير الإبراهيمي،
وإلى والديّ
الكريمين،

وإخوتي ، ومشايخي ،
وأصدقائي وحبائي ؛
أهدي هذا الجهد
المتواضع . . .

شكر وتقدير

بعد شكر الله تعالى الذي ابتدأني بالنعم، فجعلني مسلماً، وأكرمني
بالعقل، ومنّ عليّ بالفهم، ووفّقني للعلم...

بعد شكر الله أتقدّم بجزيل الشكر لوالديّ الكريمين، اللذين ربّاني
فأحسنّا تربيتي، وشجّعاني على سلوك طريق العلم، وكفّاني مؤونة
الإنفاق صغيراً وكبيراً، بل هما مستعدّان -وأنا في طور الرجولة- أن
يكفّاني جميع كُلفِ الحياة في سبيل طلب العلم...

أشكر شقيقي الأكبر، وشقيقي الكبرى، وجميع أصحابي؛ الذين
هم، زادي، وزنادي، وزينة حياتي، وطعمها الحلو...

وأشكر جميع أساتذتي ومشايخي، الذين تعبوا في تعليمي وتهذيبي
وتثقيفي وتوجيهي، سواء منهم الذين تعرفت عليهم في حلقات العلم
الخاصة، أو في جامعة خروبة بالعاصمة، أو هنا في مدرجات جامعة حمّـه
لخضر بالوادي، أشكرهم جميعاً بلا استثناء، وأخبرهم أنني لا أسوى
شيئاً من دونهم...

وأخصّ من الأساتذة بالذكر الدكتور الجادّ "إدريس ريمي" الذي صبر
معي وتحمّلني، ولم يبخل عليّ من جهده ووقته ونصحه...

كما أخصّ من الحبايب بالذكر الصديق الصدوق "محمد الأمين
مهري" الذي تابع معي الرسالة في جميع أطوارها، نعم في جميع أطوارها
ولست أبالغ، ومهما شكرته وذكرته فلن أوفّيه حقه أبداً. أسأل الله أن
يكون في حاجته كما كان في حاجة أخيه العاجز...

أسامة بن قحور

الولدي

في: 11/9/2021م

ملخص:

هذا البحث يتناول موضوعاً نحويًا تفسيريًا، حاولت فيه -قدر الإمكان- أن أبين وجه العلاقة بين العلمين انطلاقاً من تفسير ابن باديس، وكيف كان الإمام يوظف علم النحو في اقتناص المعاني التفسيرية... فكان عنوان البحث هكذا: "توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

والإشكال الذي جعلته نصب عينيّ طوال الدراسة هو: هل كان ابن باديس -رحمه الله- يعرض المسائل النحوية عرضاً جافاً معزولاً عن التطبيق، أم كان يوظفها في إثراء الدرس التفسيري، ويجعلها خادمة له؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية قسمت بحثي إلى قسمين؛ قسم نظري، وقسم تطبيقي، أما القسم النظري فجعلته في مبحثين فقط، وتحت كل مبحث تمهيد ومطالب. المبحث الأول خصصته لترجمة مبتكرة عن الإمام، فذكرت أهم المحطات في حياته، ثم تناولته مفسراً، ومنه تخلصت إلى تناوله لغوياً، ومنه تدرّجت للكلام عن أهم مباحث اللغة التي اشتمل عليها تفسيره.

وأما المبحث الثاني فقد خصصته لإبراز العلاقة بين علم النحو والتفسير، فمهدت بذكر نبذة عن علم النحو والتفسير، ومنها تخلصت إلى العلاقة بين العلمين، فذكرت أنّ النحو نشأ في أحضان القرآن الكريم وخدمته، ثم ذكرت افتقار المفسر إلى علم النحو، وحرمة تعاطي التفسير دون زاد لغوي نحوي، حتى توصّلت إلى أهمّ النحاة الذين ألفوا في تفسير القرآن، وبه ختمت القسم النظري.

وأما القسم التطبيقي من البحث فقد جعلته في أربعة مباحث، وتحت كل مبحث عدد من المطالب؛ المطلب الأول تحدثت فيه عن توظيف المعارف والنكرات في استنباط المعاني،

والمطلب الثاني تحدث فيه عن توظيف أدوات المعاني في الاستنباط، والمطلب الثالث تحدث فيه عن توظيف التوابع في الاستنباط، والمطلب الرابع خصصته لمسائل متفرقات.

وأهم النتائج التي توصلت إليها بعد هذه الرحلة الماتعة النافعة؛ رحلة الإجابة عن الإشكال:

-أنه لا يمكن ألبتة الفصل بين النحو والتفسير، وأنّ تفسير ابن باديس بالرغم من كونه تفسيراً إصلاحياً تربوياً هادئاً؛ لم يخل من مسائل لغوية عموماً، ومن مسائل نحوية على وجه الخصوص، وأنه لم يكن يسوق تلك المسائل النحوية سياقة جافّة ممّلة كما كان يفعل معاصروه من مشايخ الزيتونة الذين انتقد عليهم الإمام مناهجهم في التعليم، وإنما أسلوبه في عرض المسائل النحوية أسلوب انتقائي عملي؛ فهو دوماً يكتفي بالمسائل التي تترتب عليها فوائد عملية استنباطية فحسب، ويُعرض عن التنظيرات التي لا طائل تحتها، فلا يأتي بالنحو من أجل النحو، بل يأتي بالنحو من أجل التفسير.

Summary

This research deals with an explanatory grammatical topic, in which I tried - as much as possible - to show the face of the relationship between the two sciences based on the interpretation of Ibn Badis, and how Imam used to employs grammar in eliciting explanatory meanings...The title of the paper was "Employing Grammar to Enrich the Interpretative Lesson of the Imam Ibn Badis through His Interpretation: Councils of Reminder of the Speech of the Expert Sage".

The problem I kept in mind throughout my study was: Did Padis' reformist interpretation contain grammatical problems? If so, Was he offering her dry, isolated from the application, or was he hiring her to enrich her interpretive lesson, and making her his servant?

To answer this problem, I divided my research into two parts; The theoretical section consists of only two studies, and under each preface and request. The first research I devoted to an innovative translation of the Imam, so I mentioned the most important stations in his life, then I addressed it as an interpreter, and from it I ended up dealing with it linguically, and from it I graduated to speak about the most important discussion of the language that was included in his interpretation.

The second paper focused on the relationship between grammar and interpretation, starting with a brief overview of grammar and interpretation

From there, I concluded the relationship between the two sciences, stating that grammar arose in the arms and service of the Holy Koran, then mentioning the interpreter's lack of

grammar and the inviolability of interpretation without adding to the language of the Koran.

The practical part of the research consists of four subjects, with each subject to a number of demands; The first is about the use of knowledge and negatives in eliciting meaning, the second is about the use of tools of meaning in eliciting, the third is about the use of satellites in eliciting, and the fourth is about miscellaneous issues.

The main findings of this enjoyable journey; Problem answer journey:

- It is absolutely not possible to separate between grammar and interpretation, and that Ibn Badis' interpretation, despite being a reformist, educational, guiding interpretation; It was not free from linguistic issues in general, and from issues In particular, grammatical issues, and that he was not driving those grammatical issues as tedious as his contemporaries, Zeitouna sheiks, for whom he criticized his curriculum of education, but rather his way of presenting grammatical issues in a selective and practical manner; It always only comes to questions of deductive practical benefit, displays useless theorizing, and comes not grammar for grammar, but grammar for interpretation..

الحققة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. أما بعد:

فلا يخفى على من له أدنى تعلق بالعلوم الإسلامية والعربية وجهُ العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير، وحاجةُ المفسر وافتقاره إلى علم النحو العربي، بل إنَّ المفسر لا يكون مفسراً، ولا يستأهل هذا اللقب العظيم؛ إلا إذا جمع أدوات كثيرة، أوَّلها وأولاهها بالعناية علوم العربية عموماً، وعلم النحو على وجه الخصوص؛ إذ لا يُتصور فهم الكلام على الوجه الصحيح دون علم النحو.

فمن هنا كان موضوع بحثي مزيجاً بين النحو والتفسير، وحاولت قدر استطاعتي أن أبين وجه العلاقة بين العلمين، وكيف يكون النحو خادماً للتفسير، ورافداً من روافده الفياضة، وكيف تُوظَّف قواعد النحو النظرية في استخراج المعاني التفسيرية.

والكتابُ الذي تحيَّرتُه لتبيان هذه العلاقة، هو تفسير الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس، الموسوم بـ: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، فجاء عنوان بحثي -على بركة الله- هكذا: "توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

أما عن الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع بالذات، فيمكن أن أختصرها في سببين رئيسين:

الأول: هو حيي الشديد للأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، وتأثري الكبير بأفكاره الإصلاحية والتربوية، وقلت في نفسي قبل البداءة في العمل: "هي فرصة لمزيد اطلاع على أفكار هذا الإمام العظيم من خلال ما كتبه هو نفسه ومن خلال ما كُتب عنه"، ولقد كانت

المقدمة

مدة اشتغالي بالبحث فال خير وبركة عليّ؛ فقرأت كل آثار الإمام المطبوعة، والكثير مما كُتب عنه، وربما كان يكفيني لإنجاز البحث أن أقرأ مواضع من تفسيره فقط.

الثاني: هو أنني أسمع الكثير من الكلام عن ابن باديس المفسر، والفقيه، والمصلح، والمؤرخ، والمربي، والصحفي، والمحدث، والأصولي، والصوفي، والفيلسوف... ولا أكاد أسمع شيئاً عن ابن باديس اللغوي النحوي، والذي أسمع من الكلام في هذا الموضوع أسمع خافتاً؛ فمن هنا أردت أن أكشف النقاب عن هذا الجانب المستور من حياة الإمام، وأردت أن أردّ الخافت جهيراً، والصغير كبيراً، وأرجو أن أكون قد وقّفت إلى شيء من ذلك.

تفسير ابن باديس تفسير هدايي تربويّ إصلاحي، فالحقبة الزمنية الاستعمارية التي كُتب فيها كانت إلى التريبة والإصلاح أحوَج منها إلى حشو الأدمغة بالقواعد النحوية النظرية الجافّة، التي ربما تبقى حبيسة الكتب والأدمغة وحلقات العلم فقط، ولا يستغلّها الناس ولا يستثمرونها عملياً في حياتهم اليومية!

بناءً على ما تقدم؛ هل كان ابن باديس -رحمه الله- يعرض المسائل النحوية عرضاً جافاً معزولاً عن التطبيق، أم كان يوظفها في إثراء الدرس التفسيري، ويجعلها خادمة له؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية قسمت بحثي إلى قسمين؛ قسم نظري، وقسم تطبيقي، أما القسم النظري فجعلته في مبحثين فقط، وتحت كل مبحث تمهيد ومطالب. المبحث الأول خصصته لترجمة مبتكرة عن الإمام، فذكرت أهم المحطات في حياته، ثم تناولته مفسراً، ومنه تخلّصت إلى تناوله لغوياً، ومنه تدرّجت للكلام عن أهم مباحث اللغة التي اشتمل عليها تفسيره.

المقدمة

وأما المبحث الثاني فقد خصصته لإبراز العلاقة بين علم النحو والتفسير، فمهدت بذكر نبذة عن علم النحو والتفسير، ومنها تخلصت إلى العلاقة بين العلمين، فذكرت أنّ النحو نشأ في أحضان القرآن الكريم وخدمته، ثم ذكرت افتقار المفسر إلى علم النحو، وحرمة تعاطي التفسير دون زاد لغوي نحوي، حتى توصّلت إلى أهمّ النحاة الذين ألفوا في تفسير القرآن، وبه ختمت القسم النظري.

وأما القسم التطبيقي من البحث فقد جعلته في أربعة مباحث، وتحت كل مبحث عدد من المطالب؛ المطلب الأول تحدث فيه عن توظيف المعارف والنكرات في استنباط المعاني، والمطلب الثاني تحدث فيه عن توظيف أدوات المعاني في الاستنباط، والمطلب الثالث تحدث فيه عن توظيف التوابع في الاستنباط، والمطلب الرابع خصصته لمسائل متفرقات.

يلاحظ القارئ أنّ عدد مباحث القسم التطبيقي أكثر من مباحث القسم النظري، وهو أمر طبيعي في البحوث؛ لأنّ أهمية البحوث تكمن في جوانبها العملية التطبيقية، ولأنّ جزءاً كبيراً من الإجابة عن إشكالية البحث يكون في القسم التطبيقي أيضاً، أما الجوانب النظرية فتُذكر -في الغالب- مهاداً وِفراشاً للجوانب التطبيقية، وإن كانت مهمة هي أيضاً ولا تخلو من فائدة.

كما يلاحظ في القسم التطبيقي عدم التوازن بين المطالب، وهذا راجع إلى صعوبة ترتيب المادة وشحها، فقد كانت هي المتحكّمة في التقسيم في بعض الأحيان.

ومن الأمور التي ينبغي الإشارة إليها وأنا أتحدث عن الخطة؛ أنني عرضت في القسم النظري من البحث عن كثير من المباحث التي تسمّن الموضوع ولا علاقة لها به، كما أنني اختصرت الكلام اختصاراً عن المسائل المعروفة المقتولة بحثاً في حياة الإمام وعن أشهر الطبقات من تفسيره... وأحلت في الهوامش إلى بعض المراجع التي بسّطت الكلام فيها.

المقدمة

وقد سلكت في القسم العمليّ من البحث منهجين اثنين؛ هما المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي التحليلي، فقرأت تفسير الإمام قراءتين؛ قراءة سريعة، وأخرى متأنية وثيدة، وقمت باستخراج المواضع التي وظّف فيها ابن باديس علم النحو في إثراء المعاني التفسيرية.

ثم بعد ذلك قمت بترتيبها، وإحصائها، وعنوانتها، والتعريف بها، وتوزيعها على المطالب والمباحث، فكنت في كل موضع أبدأ بذكر تمهيد خفيف أعرف فيه بالمسألة النحوية، ثم أسوق الآية المفسّرة، مُتَّبِعًا إياها بنصّ كلام الإمام، بعد ذلك أذكر بكلامي وجه الشاهد من كلامه، وأبين براعته في اقتناص المعاني عن طريق توظيف علم النحو، وكيف كان يوائم بين التنظير والتطبيق، وهكذا هلمّ جرّا في كل موضع.

وفي الأخير قدّمت خلاصة عن موضوع الدراسة، متبوعة بقائمة المصادر والمراجع التي تم توظيفها في إنجاز البحث، طبعا دون نسيان الفهارس...

ومن الدراسات السابقة التي نظرت فيها وتطلّقت عليها أثناء إنجاز عملي:

- رسالة ماجستير من إعداد الطالب (عبد الحفيظ شريف)، بإشراف الأستاذ الدكتور (صالح بلعيد)، تحت عنوان "مستويات الدرس اللغوي في تفسير مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، نوقشت بتاريخ: 05 / 03 / 2015م، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها.

- رسالة ماجستير أخرى من إعداد الطالب (عبد السلام بوباكّر)، بإشراف الدكتور (لخضر حداد)، تحت عنوان "المباحث اللغوية والبلاغية في تفسير ابن باديس - جمعا ودراسة -"، السنة الجامعية 2014-2015م، جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية.

المقدمة

- رسالة ماجستير أخرى من إعداد الطالب (محمد بوقفطان)، بإشراف (الدكتور يوسف مقران)، تحت عنوان "المسائل اللغوية النحوية عند الإمام عبد الحميد بن باديس، من خلال كتاب مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دراسة وصفية تحليلية -سورة الإسراء أنموذجا"، السنة الجامعية: 2014-2015م، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة.

وهذه الرسائل الثلاثة التي اطلعت عليها كلها ناقشت المسائل اللغوية -مع اختلاف بينها- مجرّدة عن التفسير، وبمعزل عن الاستنباط، الذي أفردته أنا بفصل مستقل، بيّنت فيه وجه العلاقة بين النحو والتفسير، وكيف كان الإمام يوظّف النحو في إثراء المعنى، وهذا أهمّ ما يمتاز به بحثي عن البحوث التي أشرت إليها.

وقد تطلّبت مني هذه الدراسة أن أرجع إلى بعض الكتب القديمة والحديثة، وهي موثّقة جميعها في قائمة المصادر والمراجع، ولا بأس أن أشير إلى أهمّها:

- كتاب "ابن باديس حياته وآثاره"، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1388هـ-1968م، وقد قرأت جميع أقسامه، حتى المقالات التي ليس لها صلة بالتفسير في الظاهر، وفي كثير من الأحيان كنت أجد في المقالات تفصيلات وتبينات وتقييدات لأموّر عمّمها ابن باديس أو أجملها أو أطلقها في قسم التفسير.

- كتاب "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي"، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار البصائر للنشر والتوزيع-الجزائر، 2009م، وتكمن فائدة هذا الكتاب في أنّ الإبراهيمي رفيق درب ابن باديس، وترجمان أفكاره، وأعرف الناس به. يذكر الشيخ عبد الرحمن شيبان أنّ الشيخ بلقاسم بن رواق أطلعه على رسالة جاءته من الإبراهيمي من آفلو، يُعلن له فيها أنه

المقدمة

بصدّد تأليف كتاب عن حياة ابن باديس في ثلاثة وعشرين فصلا! ⁽¹⁾. ولقد قرأت آثار الإبراهيمي كلها أيضا، وألهمتني كثيرا في ترجمة ابن باديس، وفهمت من خلالها عقلية ونفسية الأستاذ الرئيس.

- أما عمدي في علم النحو فقد كانت كتب جمال الدين بن هشام الأنصاري، لا سيما كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، واخترت كتب ابن هشام على غيرها؛ لما اشتملت عليه من التحقيق، وحسن الترتيب والعرض الأنيق، ولأنّ النحو في زمانه كان قد نضج واستقرت مسأله وحدوده، فمن هنا غالب التعريفات أخذتها من عنده.

- وعمدي في التفسير كانت على المصادر الأربعة التي أشار إليها الأستاذ الرئيس في خطبة افتتاحه لدروس التفسير، أعني بذلك: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وكشاف الزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان، ومفاتيح الغيب للرازي ⁽²⁾... كما رجعت أيضا إلى تفسير الطاهر بن عاشور؛ لأنه شيخ ابن باديس؛ ولأنّ لهما نفس المشرب والنزعة.

أما الصعوبات التي واجهتني أثناء كتابة البحث فهي كالآتي:

- أني متعوّد على الكتابة الأدبية الحرة، التي لا أصدر فيها إلا من نفسي فقط، ومن مخزوني التراكمي من المعلومات والمطالعات، وليس فيها لا توثيق ولا مراجع، أما الكتابة الأكاديمية فهي دقيقة بعض الشيء، ولها ضوابط وقواعد تقيّد في كثير من الأحيان حرية الكاتب... هذه هي أهم الصعوبات التي واجهتني وواجهتها.

- من الصعوبات أيضا: أني في فترة تحرير البحث كثيرا ما كنت أتنقل ما بين العاصمة ووادي سوف، ودائما كان التنقل يضطرني إلى توقيف العمل، وهذه الفواصل الاضطرارية

(1) ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار البصائر للنشر والتوزيع-الجزائر، 2009م، ج 2، ص 7.

(2) ستأتي ترجمة هؤلاء الأعلام في صلب الموضوع.

المقدمة

كانت تصنيفي بالفتور والكسل، فلا أعاود العمل والنشاط إلا بعد جهد جهيد، و"إهمال ساعة يفسد رياضة سنة" كما قال ابن حزم⁽³⁾.

- ومن الصعوبات أيضا: أنني تعبت قليلا في ترتيب مباحث ومطالب القسم العملي من البحث، فالمادّة العلمية التي عثرت عليها في الكتاب شحيحة جدا في مطالب، سخيّة جدا في مطالب أخرى، وهذا يصعب عملية الترتيب، ويؤثر على توازن المطالب، بل المادة المتاحة هي التي كانت تتحكم أحيانا في الترتيب!

- ومن الصعوبات: أنّ بعض المسائل التي تناولتها بالدراسة يتجاوزها أحيانا أكثر من علم؛ فتارة يتجاوزها النحو والصرف، وتارة النحو والبلاغة، وهذا قد يوهم القارئ العجلان أنني خرجت عن الموضوع، ولم أفعل، وقد نبّهت على هذه المسائل في مواضعها.

- ومن الصعوبات: أنني لم أطلع على الدراسات السابقة إلا بعدما فرغت من القسم التطبيقي من البحث، ولو اطلعت عليها قبل ذلك لسهل الأمر قليلا.

وقبل وبعد؛ فقد بذلت -بلا من- كثيرا من الجهد والوقت والمال لأحرّر هذه المذكرة، وتغرّبت، وتحملت قساوة المناخ، وسهرت، وعصرت محّي، وقرأت الكثير، وكم كان يتعكّر مزاجي عندما أجلس للكتابة ولا تواتيني القريحة! وتوحيّت قدر الإمكان أن أضيف ولو شيئا يسيرا إلى مجال البحث العلمي، ومع كل ذلك أجزم -بحكم بشرتي الناقصة- أنني لم أسلم من الخطأ والسهو والوهم وسوء الفهم، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي وحدها ومن الشيطان اللعين، وما توفّقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وهذا أوّان الشروع في المقصود.

(3) الأَخْلَاقُ وَالسِّيَرُ، علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْمٍ أبو محمد الأَنْدَلُسِيِّ، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1408هـ=1988م، ص 82.

المبحث الأول: ترجمة الإمام ابن باديس ولمحة عن

تفسيره

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الخطوط العريضة في حياة الإمام عبد الحميد

ابن باديس

المطلب الثاني: ابن باديس المفسر

المطلب الثالث: ابن باديس اللغوي

المطلب الرابع: مباحث اللغة في تفسير ابن باديس

تمهيد:

ابن باديس من الشخصيات الالامعة التي أسالت كثيرا من مداد الكاتبين، وعمرت أندية المفكرين والمتحدثين، وشغلت خواطر الخطباء، وهيّجت قرائح الأدباء والشعراء، ابن باديس شخصية متعددة الجوانب والمواهب؛ فهو الأديب الأريب، وهو الشاعر الخنّيد، وهو الخطيب المفوّه، وهو الكاتب البليغ، وهو العالم المثقّف، وهو المعلّم الشفيق، وهو الصوّفيّ الرقيق، وهو المصلح الديني والاجتماعي، وهو المؤرّخ البصير، وهو السياسي المحنّك، وهو الصحافيّ القدير، وهو الفقيه واللغوي والمفسر!

ابن باديس شخصية ثريّة، غنيّة، شاملة، كاملة، جوانب العظمة فيها كثيرة، ولقد حظي رحمه الله باهتمام منقطع النظير من قِبَل الكُتّاب والباحثين، فكل جانب من جوانب شخصيته قد أُفرد بمؤلفات وخصّ بدروس ومحاضرات، ولقد أحصى الأستاذ الدكتور مسعود بن موسى فلوسي في كشّافه⁽¹⁾ ما يزيد عن 600 عمل؛ ما بين مقالات، وبحوث، ودراسات، وكتب، ورسائل جامعية = كلّها كُتبت عن هذا الإمام العظيم وعن عبقريته الفدّة!، دون أن ننسى أنّ هذا الكشّاف البيليوغرافي طبع سنة 2016م، فكم من صفحات سُودت عن ابن باديس من ذلك التاريخ إلى اليوم؟!، وكم من محاضرة أُلقيت؟!، لا شك أنّها بالملئات!

لهذه الأسباب ولغيرها لن أطيل الكلام عن ترجمة الإمام، بل سأختصرها اختصارا، وسأكتفي بذكر المخطات البارزة في حياته، وسأحيل في النهاية إلى المراجع التي تناولت حياته بالتفصيل والتطويل لمن أراد أن يعود إليها.

(1) الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي كشّاف بيبيوغرافي، مسعود بن موسى فلوسي، الطبعة الأولى، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، 1437هـ/2016م.

المطلب الأول: الخطوط العريضة في حياة الإمام عبد الحميد ابن

باديس

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكّي بن باديس⁽¹⁾، أسرته أسرة قسنطينية مشهورة منذ القدم بالعلم والثناء والجاه والنفوذ، نبغ منها عدة شخصيات لامعة، وينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس⁽²⁾ مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى.

ولد رحمه الله في قسنطينة يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع الثاني عام سبع وثلاثمائة وألف من الهجرة، الموافق ل 4 ديسمبر 1889م. أبوه هو المصطفى بن مكّي، وأمه هي السيدة زهيرة بنت علي الأكحل بن جلول، وكان عبد الحميد بكر أبويه.

(1) حياة الإمام معروفة لدى العام والخاص، تناولتها العديد من الكتب بالدراسة والبحث، ومن أراد التوسع في تفاصيل حياة الإمام فليرجع إلى الكتب التالية: ابن باديس حياته وآثاره، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، ج 1، الطبعة الأولى 1388هـ - 1968م / الشيخ عبد الحميد ابن باديس: السلفية والتجديد، الدكتور محمد دراجي، دار الهدى - عين مليلة - الجزائر / إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ محمد الصالح رمضان، دار الأمة ط 2010م / الإمام ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير، الدكتور محمد قاسم، دار المعارف، مصر، ط 2، 1979م / عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الدكتور تركي رابح، ط 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م / ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1980م / عقيدة العلامة عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله - ويليّه أضواء على ترجمة عبد القادر الراشدي القسنطيني، لأبي عبد الله محمد حاج عيسى الجزائري، دار العواصم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1424هـ - 2003م / الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ماي 2002م / مسعود بن موسى فلوسي، الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي كشّاف بيبليوغرافي، الطبعة الأولى، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، 1437هـ / 2016م / مجموعة من البحوث والمقالات تحت عنوان: ابن باديس موقف الضمائر، منشورات زكي بوزيد / عبد الحميد ابن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

(2) قال ابن الوردي في تاريخه عند ذكر أحداث سنة أربع مئة: "وفيها توفي باديس بن منصور بن يوسف بلكين بن زيري أمير إفريقية، وولاهما بعده ابنه المعز وعمره ثماني سنوات". تاريخ ابن الوردي، ط 1، دار المعارف، بيروت، 1975م، ج 1، ص 552.

أتم حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد المداسي وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومن شدة إعجاب المؤدب بذكائه وأخلاقه قدّمه ليصلي بالناس التراويح ثلاث سنوات متتابعات في الجامع الكبير.

في سنة 1903م بدأ ابن باديس في تلقي مبادئ العلوم العربية والإسلامية، وقد انتخب أبوه لهذه المهمة الشيخ أحمد أبا حمدان لونيّسي⁽¹⁾، أحد الشيوخ المتضلعين من المعارف اللسانية والإسلامية، وكان له أثر كبير في توجه ابن باديس العلمي والسلوكي والحياتي.

حين بلغ الخامسة عشرة من عمره (1904م) زوّجه أبوه فأُنجب ولدا سمّاه إسماعيل عبده.

في سنة 1908م رحل إلى الزيتونة ليستكمل معلوماته وتجاربه، وسنّه إذ ذاك تسعة عشر عاما، وتخرّج بشهادة التطويع في سنة 1911-1912م وعمره ثلاث وعشرون سنة، وعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت.

درس على جهابذة الزيتونة في ذلك الوقت، وتأثر كثيرا بشيخه محمد النخلي، وهو الذي لفته إلى مؤلفات الشاطبي وابن العربي، وصبغه بنفس الصبغة التي صبغه بها شيخه حمدان لونيّسي القسنطيني.

عاد إلى قسنطينة في سنة 1913م، فقصّد الجامع الكبير وأخذ يدرّس كتاب (الشفاء) للقاضي عياض.

(1) حمدان لونيّسي عالم من زعماء الحركة الإصلاحية في الجزائر من أهل قسنطينة، درّس فيها وهاجر إلى الديار المقدسة بعد إعلان الدستور العثماني سنة 1908م، توفي بالمدينة المنورة سنة 1912م. انظر ترجمته في معجم أعلام الجزائر، ص 346.

في السنة نفسها استأذن أباه في السفر إلى الحج، وهناك التقى مجدداً بشيخه حمدان لونيسي الذي كان هاجر إلى المدينة بعدما أدى الذي عليه في قسنطينة، والتقى أيضاً برفيق دربه في الإصلاح والجهاد فيما بعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وفي تلك المجالس الطاهرة وُلدت فكرة تأسيس جمعية تُعنى بالإصلاح الديني والاجتماعي.

وفي طريق العودة مرّ على دمشق ولبنان ومصر أين التقى بالعديد من الشخصيات الإسلامية وزعماء الإصلاح، أمثال: الشيخ بجيت⁽¹⁾ العالم الأزهري المصري زميل الأستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ طاهر الجزائري المصلح ببلاد الشام.

ثم عاد إلى مسقط رأسه قسنطينة، فاشتغل فيها بالتربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي والنضال السياسي، وتأسيس الجمعيات والأندية الثقافية والرياضية، وإنشاء الجرائد، وتشيد المدارس... وفي الجامع الأخضر بقسنطينة درّس موطأ الإمام مالك، وبه ختم القرآن الكريم تفسيراً في مجالس انتظمت ربع قرن من الزمن!

في يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذي الحجة الحرام عام 1349هـ، الموافق للخامس من ماي 1931م، على الساعة الثامنة مساءً = انتخب ابن باديس رئيساً مدى الحياة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ عرفانا بقدره وبمجهوداته الجبارة التي بذلها في حقول التربية والتعليم والإصلاح.

في سنة 1936م دُبِّرَتْ للإمام مكيدة قتل، لكنها في النهاية باءت بالفشل.

(1) هو محمد بجيت بن حسين المطيعي الحنفي (1854-1935م)، ولد بقرية المطايعة بمحافظة أسيوط، تعلم بالأزهر بعد أن أتم حفظ القرآن ثم اشتغل بالتدريس فيه، درس على حسن الطويل والأفغاني، وتقلب في المناصب إلى أن عُيِّن مفتياً للديار المصرية سنة 1914م، توفي بالقاهرة وله مؤلفات كثيرة. (ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) 1980م، ج 2، ص 45)

لم يترك ابن باديس الكثير من المؤلفات مع كمال أهليته للكتابة؛ لأنه شُغل بتأليف الرجال عن تأليف الكتب!

توفي رحمه الله مساء الثلاثاء الثامن من ربيع الأول سنة تسع وثلاثمئة وألف هجرية، الموافق ل 16 أبريل 1940م، بعد حياة قصيرة لكنها عريضة جدا، قضى شطرها الأول في التعلم وشطرها الثاني في التعليم، ودُفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة، وكان يوم جنازته مشهودا.

المطلب الثاني: ابن باديس المفسر

تمهيد:

يذكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في آثاره أنّ إمامة التفسير انتهت بعد وفاة الأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه وترجمان أفكاره محمد رشيد رضا⁽¹⁾ انتهت إلى الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله، فقد ختمه درسا ودراية في الجامع الأخضر بقسنطينة في مجالس انتظمت ربع قرن من الزمن!، ولم ينقل لنا التاريخ أنّ عالما جزائريا ختم القرآن بهذه الطريقة، اللهم إلا ما كان عن الشريف التلمساني في المئة الثامنة للهجرة⁽²⁾.

وبالرغم من أنّ الإمام ابن باديس استمرّ يفسر القرآن طوال خمسة وعشرين سنة متتالية، غير أنه لم يصلنا مكتوبا من تفسيره إلا النزر اليسير؛ إذ كان يكتفي بالتحضير والإلقاء فقط، ولم يكن يكتب لا هو ولا طلبته الكلام العجيب الذي كان يلقيه على الحاضرين في المسجد، وما بلغنا من تفسيره المكتوب -وهو أقل من عشر معشار ما كان يفيض به في الدرس- هو عبارة عن افتتاحيات وردت في مطلع كل عدد من مجلة الشهاب تحت عنوان "مجالس التذكير"، ودامت هذه الافتتاحيات من عدد كانون الثاني 1929م إلى عدد أيلول 1939م، ثم جُمعت بعد ذلك وطُبعت، والاسم الكامل لتفسير ابن باديس هو: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

(1) محمد رشيد رضا (1282 - 1354 هـ = 1865 - 1935 م) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الاصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الاصلاح الاسلامي، من الكتاب، العلماء بالحديث والادب والتاريخ والتفسير. ينظر الأعلام للزركلي، ج: 6، ص: 126.

(2) ينظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، أحمد طالب الإبراهيمي، دار البصائر للنشر والتوزيع-الجزائر، 2009م، ج 2، ص 252.

ولا يُشترط لنستدلّ على إمامة ابن باديس في التفسير أن يصل إلينا تفسيره كاملاً، ففي الذي وصلنا -مع شحّه- كفاية، بل إنّ صفحة واحدة ممّا وصلنا من تفسيره لكافية في الدلالة على إمامة الرجل في التفسير والمعيّة ورسوخ قدمه فيه، ومن طالع تفسيره عرف ذلك، وعرف أيضاً حجم الخسارة التي لحقت المكتبة الجزائرية والإسلامية بعدم تدوين ذلك التفسير كاملاً !

ولا بأس أن ننقل هنا كلمة موجزة للبشير الإبراهيمي يتحدث فيها عن براعة ابن باديس في التفسير، يقول رحمه الله تعالى: "كان للأخ الصديق عبد الحميد ابن باديس رحمه الله ذوق خاص في فهم القرآن، كأنه حاسة زائدة خُصّ بها"⁽¹⁾.

وقد يقول قائل: من أين جاءت ابن باديس هذه الحاسة الزائدة، ومن أين أتاه هذا الذوق الرفيع في فهم القرآن الكريم؟ فأقول: هذا المطلب عُقد لبيان ذلك، والإجابة عن هذا التساؤل نختصرها في العوامل الآتية:

العامل الأول: عامل النشأة والبيئة

لقد نشأ ابن باديس -كما هو معلوم- في أسرة ضاربة الجذور في العلم والجاه والغنى، وكان أبوه من حملة القرآن الكريم، وقد تحيّر لتأديب ابنه وتنقيفه أحسن المؤدبين والمعلمين، وهو الذي شجّع فيه فيما بعد على الرحيل للزيتونة، وكفاه مؤنة الإنفاق وتكاليف السفر، ولا نشكّ أبداً أنّ ابن باديس لما ميّز شماله من يمينه قد سمع من أبيه أو أمه أو أحد أقاربه أنه ينتمي إلى أسرة عريقة شريفة، ولا يخفى ما يمنحه الشعور بالانتماء إلى أصل طيب من قوة وتأثير في تحديد مسار الحياة.

(1) المرجع السابق.

يقول ابن باديس في الكلمة التي ألقاها على الحاضرين في حفل اختتام القرآن: "إنّ الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها"⁽¹⁾.

فهذه الكلمة في ذلك اليوم بالذات تدل على أنّ نشأة ابن باديس السليمة كانت عاملاً من أهم العوامل في اكتساب ذلك الذوق وتلك الحاسة العجيبة في فهم القرآن، وتدل أيضاً على كرمه وفضله ومروءته وبرّه بوالده، وكأنه يقول للناس الحاضرين من مختلف جهات الوطن: إذا كان هنالك رجل يستحقّ الشكر والتقدير والتصفيق فهو والدي !

العامل الثاني: عامل الفطرة والموهبة

زيادة على النشأة الأسرية السليمة التي حباها الله بها = فقد كان ابن باديس صاحب مواهب جبارة واستعدادات فطرية أهّلته ليصير عالماً فيما بعد، وقد ظهرت عليه مخايل النجابة مبكراً؛ إذ ختم القرآن حفظاً في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدّب بذكائه قدّمه ليصلي بالناس التراويح ثلاث سنوات متتابة في الجامع الكبير، ثم لما رحل إلى الزيتونة عُرف هنالك بالجدّ والنشاط، وما لبث أن انتقد بعض الطرائق التعليمية البالية التي درج عليها الجامع منذ قديم الزمان، وقدّم لهم اقتراحات وبدائل لإصلاح التعليم⁽²⁾، وهذا لا يُقدّم عليه إلا أهل المواهب والنبوغ، أما غيرهم فيعتقدون فقط ولا ينتقدون!

وهذه الفطرة الصافية وهذه الموهبة الملهبة هي التي تركته أيضاً يتبرّم من طرائق المتكلمين في الاستدلال على العقائد الإسلامية، ويتذمّر من المباحث الجدلية العقيمة التي يقحمها المفسرون في كتبهم، ويتضجّر من الشرح الكبير الموجود بين التنظير والتطبيق في

(1) ابن باديس حياته وآثاره، قسم التفسير، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1388هـ - 1968م، المجلد الأول، ص: 138.

(2) ينظر مقال: إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمره الله، المرجع السابق، ج 3، ص 180.

العلوم التي كانت تُدرس في الزيتونة؛ إذ يفني الطالب أوقاتا ثمينة من عمره في دراسة العلوم الآلية، دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، وهذا خلل كبير في المنهجية... وقد تفادى ابن باديس كل ذلك لما قعد على كرسيّ الدرس.

من تواضع ابن باديس وأمانته العلمية أنه ذكر في افتتاح دروس التفسير المصادر التي كان يعتمد عليها في تحضير ما كان يلقيه على الحاضرين في المسجد، لكنك إذا طالعت ما كتبه ابن باديس؛ وجدته متميزا تماما على ما هو موجود في تلك التفاسير، ووجدت تحكما كبيرا واستقلالية تصعب عليك ردّ المعلومات إلى أصولها، فالرجل صاحب عقل جبار، وقارئ ممتاز؛ يطالع الكتب التي يعرفها الناس، لكنه يصفيها بمهارة، ثم يصوغها صياغة جديدة عليها طابعه الخاص، تجعل الناس كأنهم لا يعرفونها، وهكذا أصحاب المواهب !

وبالجملة؛ فمواهب ابن باديس الفطرية غير خافية، وقد تحدث عنها كل من رآه أو عاصره، وكلهم مجمعون على أنه صاحب ذكاء مشرق، وقريحة وقادة، وبصيرة نافذة، وفهم ثاقب، وحافظة واعية.

العامل الثالث: عامل التكوين العلمي المنظم

أُتيح لابن باديس منذ طفولته المبكرة تكوين علمي منظم، ويمكننا أن نحمل القول على هذا التكوين في النقاط التالية:

أ- مرحلة الدراسة في قسنطينة:

حيث حفظ ابن باديس القرآن كاملا على شيخه محمد المداسي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم أخذ في تلقّي مبادئ العلوم الشرعية واللغوية على يد الشيخ حمدان لونيبي.

ب- الرحلة الأولى إلى جامع الزيتونة:

ثم ما إن بلغ ابن باديس تسعة عشر عاما حتى ولى وجهه شطر الجامع الأعظم؛ جامع الزيتونة المعمور، وهنالك أثرى تجاربه الحياتية، وأكمل دراسته التي كان بدأها في قسنطينة، وعُرف في دراسته بالجد والنشاط والمثابرة، وتخرّج بشهادة التطويع في سنة 1911م وعمره ثلاث وعشرون سنة، وعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت.

وفي الزيتونة التقى بأكابر العلماء الراسخين في العلوم اللسانية والشرعية، نذكر منهم على الخصوص:

- 1- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: وقد لازمه ابن باديس ثلاث سنوات، وهو الذي حبّب إليه اللغة والأدب والتفقه في كلام العرب.
- 2- الشيخ محمد النخلي القيرواني⁽¹⁾: وقد لازمه ابن باديس مدة سنتين، وهو الذي لفته إلى مؤلفات المحققين أمثال: القاضي عياض، والشاطبي، وابن العربي، وهو الذي وجّهه توجيهات ذهبية كان لها أثر كبير في حياته العلمية، بل إنّ هذا الشيخ هو الذي استخرج الحاسة والذوق اللذين تحدث عنهما الإبراهيمي!
- 3- الشيخ البشير صفر: وكان مشهورا بالاستنارة وبانفتاحه على الثقافة الغربية، مع إتقانه لبعض اللغات الأجنبية، ولا شك أنّ ابن باديس قد أخذ منه شيئا من ذلك.

(1) محمد النخلي القيرواني (1867-1924م)، من أعلام جامع الزيتونة في عصره، كان هو والشيخ محمد الطاهر بن عاشور يشار إليهما بالرسوخ في العلم، وسعة الاطلاع، وجودة البيان مع الميل إلى آراء الشيخ محمد عبده. (ينظر الأعلام للزركلي، ج:6، ص: 174).

4- الشيخ محمد الخضر حسين⁽¹⁾: وقد أخذ عنه ابن باديس دروسا في التفسير والمنطق⁽²⁾.

هؤلاء هم بعض مشيخته في الزيتونة، وسأذكر ههنا أيضا بعض الكتب التي اعتمدها وكان لها أثر في تكوين شخصيته العلمية والتفسيرية:

ذكر ابن باديس رحمه الله في خطبة افتتاح دروس التفسير أنّ جلّ اعتماده في التحضير كان على الكتب التالية⁽³⁾:

1- تفسير ابن جرير الطبري.

2- تفسير الكشاف للزمخشري.

3- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

4- تفسير الرازي المسمّى: مفاتيح الغيب.

وكل كتاب من الكتب المذكورة آنفا له مجال يهتم به؛ فالكشاف يهتم بالبلاغة، وأبو حيان يهتم بالنحو، والطبري له عناية فائقة بالتفسير المأثور، وترجيحات رائقة في المسائل الخلافية، أما الرازي فقد تكفل بالمسائل الكونية والمباحث الكلامية، فهذه المصادر المتنوعة تدلنا على موسوعية ابن باديس وتصرفه في العديد من العلوم، وهذه الكتب المختلفة وغيرها إذا مزجناها بعقل ابن باديس الكبير أخرجت لنا آية فنيّة وتحفة علميّة اسمها: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

ج- الرحلة الثانية إلى الحج وإلى بعض الأقطار الإسلامية:

(1) محمد الخضر حسين (1876-1958م)، عالم دين تونسي من أصل جزائري، تولى مشيخة الأزهر من 1952-1954. (انظر الأعلام للزركلي، ج:6، ص: 113)

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 76.

(3) المرجع السابق، ص: 162-163.

لم يلبث ابن باديس أن سافر إلى الحج بعد عودته من الزيتونة في سنة 1911م، وفي طريق عودته زار مصر وسوريا ولبنان، وكما أن رحلته الزيتونية وقرت له أساتذة وعلماء صاحبهم وأطال الجلوس معهم؛ كذلك وقرت له رحلته الحجازية معلّمين وأساتذة روحيين إن صح التعبير، صحيح لم يجلس إلى هؤلاء الأساتذة الروحيين طويلا، لكنه استفاد كثيرا من نصائحهم وتوجيهاتهم. فمن هؤلاء العلماء الذين اتصل بهم في المشرق:

1- العلامة محمد بخيت المطيعي المصري⁽¹⁾: ولا نشك أن أكثر حديث ابن باديس مع الشيخ بخيت كان موضوعه حول الأستاذ الإمام محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني وأفكارهما الإصلاحية، فقد درس الشيخ بخيت على الأفغاني وكان زميلا لمحمد عبده. وعاد ابن باديس إلى الجزائر ومعه إجازة عامة من الشيخ بخيت.

2- الشيخ طاهر الجزائري ثم الدمشقي⁽²⁾: العالم النحرير والمصلح الكبير ببلاد الشام، وهو أيضا قد نفخ من روحه الإصلاحية في ابن باديس وإن لم يلقه، وجذبه إلى التجديد والإصلاح في طرائق التعليم.

3- العلامة السيد حسين أحمد الهندي الفيض آبادي: وقد كان ابن باديس يثني عليه كثيرا، ولو لم يكن له من فضل على الإمام إلا أنه حثه على العودة إلى الوطن والعمل فيه؛ لكفاه ذلك فضلا وشرفا ونصحا⁽³⁾، فقد راودت ابن باديس فكرة البقاء في الحجاز وحب السلامة، ولو بقي هنالك لما عرفه لا أهل الحجاز ولا أهل الجزائر ربما !

(1) تقدمت ترجمته في هامش ص: 16.

(2) الشيخ طاهر الجزائري (1268-133هـ = 1352-1920 م) طاهر بن صالح (أو محمد صالح) ابن أحمد بن موهب، السمعوني الجزائري، ثم الدمشقي: بحاثة من أكابر العلماء باللغة والادب في عصره. (الأعلام، ج: 3، ص: 221).

(3) ينظر: تركي رابح، ابن باديس رائد الإصلاح، ص 171-172.

إذًا؛ فالرحلة المشرقية أسهمت كثيرا في تحصيل الذوق والحاسة اللذين كان يصدر عنهما الإمام في تفسيره، ولئن كان ابن باديس قد حصّل في الرحلة الزيتونية أدوات المفسر؛ فإنّ الرحلة المشرقية قد نفخت الروح في تلك الأدوات وجعلتها أكثر قوة وفاعلية وتأثيرا ومضاء، فقد عاد من تلك الرحلة شعلة من التوقّد والحماس، وباشر بنفسه العمل التربوي فور رجوعه إلى قسنطينة؛ فربى وحده جيلا كاملا، وبني وحده نهضة فكرية وعلمية، وبعث أمة أوشكت أن تموت!، ولم يحل بينه وبين التعليم والنضال والإصلاح في جميع الميادين إلا الموت، ثم ترك بعده آلافا من التلاميذ خلفوه على تلك الثغور التي كان يربط فيها وحده، رحمه الله ورضي عنه.

وزيادة على تلك الروح التي نتحدث عنها=فقد استفاد ابن باديس من أسفاره سعة الأفق، ونضج الأفكار، والمقارنة بين مناهج التعليم؛ صالحها وفاسدها، ومحادثة العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وسماع أخبار المصلحين عن كتب، لا سيما أخبار السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه السيد محمد رشيد رضا، فنقّسهم الثوري الإصلاحية الهدائي بارز جدا في تفسيره، بالرغم من استقلاليته وحضور شخصيته العلمية القوية في كل ما يكتب أو يقول.

العامل الرابع: الباعث النفسي

هذا العامل لا يقل خطورة عن العوامل المتقدمة إن لم يكن أخطرها، ومنه كان يستمد ابن باديس -بعد مدد الله- كثيرا من طاقته وقوته وإبداعه، وأجزم أنّ هذا العامل لم يكن يغيب عن باله في ليله وفي نهاره، في حله وفي ترحاله، وفي جميع حالاته، وبالأخص أثناء التفسير وإلقاء الدروس، وهذا العامل هو الباعث النفسي القوي على العمل والتغيير والإصلاح، ويمكن أن نعبر عن هذا الباعث في هذه الجملة: حب الجزائر إلى درجة الافتتان، وأنّ حالها لا تصلح إلا بالقرآن الكريم، ولن أكون مبالغا إذا قلت: إنّ جميع حركات

وسكنات ابن باديس كانت صادرة عن هذا الباعث النفسي القوي، وقد قالها بصراحة في إحدى مقالاته: "أعيش للإسلام والجزائر"⁽¹⁾.

أما الجزائر فقد كان ابن باديس -وهو البصير بتاريخ البلاد والعباد- يعلم أبعادها ومفاخرها، ويعلم أيضا الحالة المزرية التي وصلت إليها بسبب التجهيل الطويل الذي مارسه عليها الاستعمار، وكان يعلم بحكم تصدّره واحتكاكه بجميع طبقات الناس = ما ينطوي عليه هذا الشعب العظيم من كمالات واستعدادات للخير، فمن هنا كان دائما أثناء جولاته الإصلاحية يستحضر الصفحة المشرقة من تاريخ الجزائر وقابلية الجزائري للخير، ويسعى لاستعادتها زاهية كما كانت، وقد حقق شيئا كبيرا مما كان يؤمله.

وأما الشق الثاني من الباعث النفسي، وهو: أنّ حال الجزائر لا تصلح إلا بالقرآن الكريم = فهو الذي جعله يعوّل في دروسه الإصلاحية على التفسير، وهو الذي تركه يستمرّ في تفسير القرآن خمسة وعشرين سنة كاملة دون انقطاع!، فمشروع يدوم ربع قرن من الزمن ليس بالأمر الهين، ولا يعين عليه إلا باعث نفسي قوي.

يقول الإبراهيمي عليه رحمة الله -وهو نقل يعزّز الفكرة التي نحن بصدد تقريرها-: "وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته"⁽²⁾.

ويقول ابن باديس في كلمة صريحة تؤكّد أيضا ما نحن فيه: "وإنّ القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالا في الخلف؛ لو حسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه"⁽³⁾.

(1) ابن باديس حياته وآثاره ج 3، ص 234.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 252.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 142.

وقال أيضا: "فإننا -والحمد لله- نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها"⁽¹⁾.

إذاً فابن باديس كان يشعر أنّ الجزائر أمانة في عنقه، وكان يهدف إلى إرجاعها لسالف عهدها، وقد اتخذ القرآن قاعدة أساسية تركز عليها تربيته وتعليمه للجيل، وهذا من أهم العوامل التي تركتها يفسر القرآن ببراعة وتحديد لم يسبق إليهما، وهذا مصدر القوة التي كان يستمد منها، وهذا هو الركن الشديد الذي كان يأوي إليه، وهذا سر الحرارة والنبض الموجودين في كلامه إذا كتب وفي نبراته إذا خطب، وهذا سر ذلك الذوق وتلك الحاسة التي افتتحنها بها هذا المبحث !

ومع أنّ المقام مقام اختصارات وإشارات، غير أنه لا يفوتني أن أنقل رأيا عزيزا نفيسا لابن باديس في تفسيره، وهو مع اختصاره يدلّ على قوّة الرجل واستقلاليتة وإمامته في التفسير.

يقول -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: (أَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) [سورة الشعراء: 128 - 131]: "و(المصانع) يقول المفسرون: إنها مجاري المياه، أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل معرفتهم بفن التعمير علماً وعملاً، وبلوغهم فيه مبلغاً عظيماً، فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه.

ولكن ليت شعري، ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى (المصنع) اللفظي الاشتقاقي؟! والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو: أنّ المصانع جمع مصنع من الصنع، كالمعامل

(1) المرجع نفسه.

جمع معمل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة أن توصف بما وصفت به في الآية= أن تكون لها مصانع بمعناها العربي عندنا؟! بلى وإنّ المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلاّ تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات!، والحق أنّ السائحين هم الرّحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار، والقرآن الذي يحث على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود"⁽¹⁾.

فانظر إلى العظمة التي تقطر من هذا النقل، حتى إنك لتشعر أن ابن باديس جالس على كرسي درسه وأنّ المفسرين "اللفظيين" جالسون بين يديه يأخذون من علمه ومن فهمه !

العامل الخامس: التمكن من ناصية اللغة العربية:

وهذا ما سنتكلم عليه في المطلب القادم إن شاء الله...

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الثاني، ص: 67-66.

المطلب الثالث: ابن باديس اللغوي

تمهيد:

أشرنا فيما سبق إلى أنّ ابن باديس رجل غزير الموارد، كثير المواهب؛ "فهو الذي فسر القرآن تفسيراً سلفياً راعى فيه مقتضيات العصر، معتمداً على بيان القرآن للقرآن، وعلى بيان السنة له، وعلى أصول البيان العربي وسننه والنفاذ إلى لغة العرب وآدابها وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنساني وتطور التاريخ والأمم.

وهو محدّث من الطراز العالي؛ لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست، أو الموطأ الذي اهتم به واعتبر منهجه في الاستدلال خير المناهج، فدرّسه وختّمه كما ختم القرآن في ربع قرن.

والظاهرة الواضحة في الحياة العلمية التي نهض بها هي: الناحية النقدية المنهجية التي ترد الفروع إلى أصولها، والأصول لمستنداتها، فأذهب ذلك الجوّ القاتم الساكن المستسلم الذي يسمع فيه الطالب ويسلم معتقداً أن "سلم تسلم" وأن "سلم للرجال على كل حال" = مبدأ لا ينبغي تحدّيه ولا تجاوزه!، وهو ما كان سائداً قبل حركته.

وهو كاتب ذو سلاسة وعذوبة وسهولة، وأسلوبه سهل ممتنع لا يستعمل السجع ولا يتكلفه، كيف لا؟! وهو الدارس لكتاب الأمالي، وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، ومقدمة ابن خلدون، والعواصم من القواصم، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، ومن قبل ذلك كله معجزة الأدب العربي وآية روعته: القرآن وجمال حديث صاحب جوامع الكلم وأفصح من نطق من بني يعرب.

وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه، وخطيب ينسيك سحبان وقس، لا يتردّد ولا يتلعثم، يستولي على النفوس ويملك القلوب.

وهو فقيه مطلع على مدارك المذاهب وخاصة مذهب الإمام مالك، جامع بين الأصول والفروع، وبين المآخذ الكلية وجزئياتها، يفتي ويربط الحوادث بأحكامها.

وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع، ويدعو للنهضة والحضارة، ويغرس الحب وأصول الأخلاق التي هي أصول المدنية.

وهو صحفي قدير يقضي ليله في إعداد المقالات وقراءة الجرائد والمجلات العربية الآتية من جميع البلاد العربية والإسلامية والأجنبية المكتوبة باللغة الفرنسية، ويعلق عليها ويرد، ويناقش ويكتب في أصول السياسة الإسلامية.

وهو مؤرخ يحلل الحضارة وينتقد مقدمة ابن خلدون، ويدرس آيات القرآن وما تنطوي عليه من الدعوة إلى النظر في تجارب الأمم، وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبدل لها ولا تحوّل.

وهو صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم، متأثر بالغزالي ويسمي كتابه "إحياء علوم الدين" بكتاب الفقه النفسي، ومتأثر بأبي بكر ابن العربي وبكتابه "العواصم من القواصم" الذي لم يسلك فيه مسلك الفلاسفة ولا منهج المتكلمين، وإنما نهج طريق القرآن في الاستدلال وأساليبه في الرد والحجاج، ذلك المنهج الذي يتلاءم مع الفطرة الإنسانية⁽¹⁾.

سبق في مطلب "ابن باديس المفسر" أنّ العامل الذي أسهم كثيرا في تكوين شخصية الإمام التفسيرية، هو: تمكنه من ناصية اللغة العربية بجميع فنونها، ونصّ الدكتور عمار الطالبي الذي نقلناه آنفا فيه كثير من الإشارات الصريحة والخفية التي تدل على أنّ منزلة الرجل اللغوية لا تقل خطورة عن منزلته التفسيرية، بل إنّ إمامته التفسيرية مدينة لزعامته اللغوية؛ إذ لا يمكن أن تكون مفسرا إلا إذا أسلمت لك اللغة العربية قيادها.

(1) هذه الفقرات مقتبسة من كتاب: ابن باديس حياته وآثاره، قسم التفسير، المجلد الأول، ص: 90-91-92.

وسأذكر ههنا في هذا المطلب بعض اللمحات المقتضبة التي تدل على امتلاك ابن باديس للأداة اللغوية، التي هي أهم أداة في مشروع المفسر:

اللمحة الأولى: إقدام الإمام على تفسير القرآن وشرح السنة

معلوم لدى الجميع -إن شاء الله- أنّ مشروع الإمام الإصلاحى والنهضوي كان مستندا في أساسه على الوحيين الشريفين؛ القرآن والسنة، وأنه لا صلاح للأجيال اللاحقة إلا بما صلحت به الأجيال السابقة، ولم يكن هذا الكلام من الإمام مجرد دعاوى وهتافات، بل إنه فور رجوعه من رحلة الحج شرع في تطبيقه، فبدأ يفسر القرآن الكريم ويشرح موطأ الإمام مالك، وقد استغرق في شرحهما معا ربع قرن من الزمن، ولا يُقدم على هذا العمل العظيم (شرح القرآن والسنة) إلا من كان له باع عظيم في علوم اللغة العربية، ومع أنّ الإمام لم يكن يكتب تفسير القرآن ولا شرح السنة إلا قليلا = غير أنّ ذلك القليل الذي وصلنا من "محاسن التذكير" يكفي في الدلالة على ما نحن عليه.

اللمحة الثانية: بلوغه درجة الاجتهاد

المطالع لآثار الإمام عموما ولتفسيره للقرآن ولشرحه للموطأ خصوصا يجد أنّ ابن باديس قد بلغ درجة الاجتهاد في الفقه وإن كان مالكيّ النشأة والتكوين؛ فهو دائما في مسائل الخلاف يستعرض الأقاويل، ثم يميل حيث مال به الدليل، تاركا وراءه قال وقيل، ولا يُتصور بلوغ درجة الاجتهاد دون تحصيل أدواته، ومن أهم أدوات المجتهد: إحكام اللغة العربية بفنونها. ومن أراد البرهان على استقلالية الإمام الفقهية فليرجع مثلا إلى سلسلة مقالات "شيخ الإسلام بتونس"⁽¹⁾، أو إلى بحث "التوجه إلى الله برسول الله"⁽²⁾.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الثالث، ص: 73 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص: 187 وما بعدها.

اللمحة الثالثة: الكتب التي كان يختارها:

كان الإمام ابن باديس رحمه الله مولعا بكتب ابن العربي، والقاضي عياض، والشاطبي، وأبي حامد الغزالي، وابن عبد البر، وطالع في أيام طلبه كتاب الأمالي، وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، ومقدمة ابن خلدون، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، ونفح الطيب للمقري.

وذكر في خطبة افتتاح دروس التفسير أنّ جلّ اعتماده في التحضير كان على الكتب التالية⁽¹⁾:

1- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري⁽²⁾.

2- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري⁽³⁾.

3- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي⁽⁴⁾.

4- تفسير الرازي⁽⁵⁾ المسمّى: مفاتيح الغيب.

(1) المرجع السابق، ص: 162-163.

(2) ابن جرير الطبري (224 - 310 هـ = 839 - 923 م) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الامام. ينظر طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر للسيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى 1396هـ، ج: 1، ص: 82.

(3) الزمخشري (467 - 538 هـ = 1075 - 1144 م) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والاداب. (نفس المرجع، ج: 1، ص: 104).

(4) أبو حيان النحوي (654 - 745 هـ = 1256 - 1344 م) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الاندلسي الجياني، النفزي، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. (ج: 7، ص: 152).

(5) (الفخر الرازي) (544 - 606 هـ = 1150 - 1210 م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الامام المفسر، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الاوائل. (ج: 6، ص:

فجميع هذه الكتب -وغيرها مما لم نذكره- وإن اختلفت موضوعاتها؛ يجمعها شيء واحد، وهو: أنّ أصحابها مع تبخّرهم في كثير من العلوم أئمة في الترسّل وفي علوم اللغة، ولا يقرأ كتب هؤلاء العظام ولا ينجذب إليهم إلا من كان عظيمًا مثلهم، وكما أنّ صاحب صاحب، فالكاتب كذلك صاحب، ومن صاحب أهل اللغة صار لغويا مثلهم !

ومع مطالعة الإمام للكثير من كتب فحول اللغة؛ أُتيح له كذلك أن يجالس العديد من جهابذة اللغة الذين عاصروه، وسأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منهم فقط؛ واحد في قسنطينة، وواحد في الزيتونة، وواحد في بلاد الشام:

أما الذي في قسنطينة فهو: الشيخ أحمد أبو حمدان لونيّسي⁽¹⁾ رحمه الله، وكان عالما من علماء اللغة والدين، تخرّج على الأستاذ الشيخ عبد القادر المجاوي⁽²⁾، وكان هو أيضا من فرسان اللغة العربية وفحولها، ومما اشتهر به هذا الأخير: الدقة العلمية في الإسناد، والشغف بالعربية وبأصولها وقوانينها النحوية، وكان يلقّب بـ"سيبويه".

إذاً فشيخ ابن باديس لغوي، وشيخ شيخه لغوي كذلك، وقد تبعهما ابن باديس في ذلك.

وأما الذي في الزيتونة فهو الأستاذ اللغوي المفسر: الطاهر ابن عاشور، وهو أشهر من أن نعرّف به، وقد جالسه ابن باديس ثلاث سنوات كاملات نتركه يحدثنا عن شيء منها في هذه الأسطر: "...وإن أنس فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن

(1) حمدان لونيّسي عالم من زعماء الحركة الإصلاحية في الجزائر من أهل قسنطينة، درّس فيها وهاجر إلى الديار المقدسة بعد إعلان الدستور العثماني سنة 1908م، توفي بالمدينة المنورة سنة 1912م. تنظر ترجمته في معجم أعلام الجزائر، ص 346.

(2) ولد سنة 1848م بتلمسان من أب يدعى محمد عبد الكريم من الفقهاء والقضاة، قرأ المجاوي في كتاب بتلمسان فحفظ القرآن وأتمه بعدما ارتحل أبوه إلى طنجة وتطاوين ثم فاس، وأكمل دراسته بالقرويين. ينظر تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، ص 449.

عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حببني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبث فيّ روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور، وأحى مني الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام"⁽¹⁾.

وأما الذي في بلاد الشام فهو: الشيخ طاهر الجزائري ثم الدمشقي، وهو من العلماء المتفنيين المستيرين، وله تعلق كبير بعلوم اللغة العربية، صحيح لم يجلس إليه ابن باديس، لكنه استفاد كثيرا من نظراته الإصلاحية وتوجيهاته التربوية ولفقاته اللغوية.

اللمحة الرابعة: أسلوبه الأدبي الرفيع وبيانه الناصع

لا يُشترط لكي نستدل على إمامة ابن باديس في علوم اللغة أن نعلم أنه قد فسر القرآن، وشرح السنة، وبلغ مرتبة الاجتهاد في الفقه، ودرس ودرّس الكتب الفلانية، وجالس الأساتذة العلّائيين، لا يشترط كل هذا، بل يكفينا فقط في الدلالة على ذلك أن نلقي نظرة سريعة على ترسله البليغ وإنشائه الأدبي الرفيع، فهو -لعمري- السحر الحلال، ومنبع البلاغة الزلال، وكما أنّ الطعام السليم يظهر أثره على الجسم قوة ونشاطا، فكذلك التكوين اللغوي المستقيم يظهر أثره في الكتابة والخطابة، وقد كان ابن باديس إماما في الكتابة، رئيسا في الخطابة.

يقول عنه صديقه ورفيق دربه الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي: "كان مع التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها؛ إماما في العلوم الاجتماعية، يكمل ذلك كله قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتّابها"⁽²⁾.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الثالث، ص: 75.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 138.

وشهادة الإبراهيمي مع قوتها وعلوّها تبقى شهادة "محلّية" إن صح التعبير، وشهادة من صديق لصديق، فمن هنا قد يقال إنها مبالغ فيها؛ لذلك سأعززها بشهادة أخرى "خارجية" لأمير البيان شكيب أرسلان، الذي لا يجمعه بابن باديس إلا النضال والفكرة. يقول رحمه الله في رسالة أرسلها إلى محمد السعيد الزاهري بعدما أخذ ببيانه: "أركان الأدب العربي في الجزائر اليوم هم أربعة: الزاهري، وباديس، والعقبي، والميلي"⁽¹⁾.

في الحقيقة شهادة الإبراهيمي وشكيب أرسلان، وغيرهما من الشهادات على جمال أسلوب ابن باديس؛ إنما يؤتى بها للاستئناس فقط؛ لأنّ بيان ابن باديس حجة في نفسه، لا يحتاج إلى من يدل عليه، كالشمس في استغنائها عن البيان والبرهان!، ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليرجع إلى مقالاته وآثاره التي وصلت إلينا، نعم إنه لن يجد فيها مقامات ولا قصائد غزلية؛ إذ لم يكن وقت الإمام يتسع للعبث بهذه اللعب اللفظية، لكنه واجد فيها - بإذن الله - قلما بليغا، وأسلوبا رفيعا، وبيانا ناصعا، ومعاني فحلة في تراكيب سهلة، تشعر من حلاوتها وطلاوتها أنك أنت الذي قلتها، ومن سهولتها وعذوبتها تشعر أنك تستطيع أن تأتي بمثلها، لكن هيهات أن تأتي بمثلها، وهيهات أن تأتي بالسهل الممتنع! وبالجملة فأسلوب ابن باديس أنموذج عالٍ غالٍ لمن أراد أن يتخرج في البلاغة وفي صناعة الإنشاء، وابن باديس معدود في البلغاء والأدباء واللغويين، كما هو معدود مع الفقهاء والمفسرين.

ومن خلال قراءتي الخاصة لتراث ابن باديس أستطيع أن أحدد مميزات أسلوبه في

النقاط التالية:

(1) الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السعيد الزاهري، دار الكتب الجزائرية، دون تأريخ، الصفحة الأولى من مقدمة الطبعة الثانية.

- الصنعة اللفظية تكاد تكون غائبة في أسلوب الإمام، فهو لا يجعل اللغة أداة للعبث واللعب كما يفعل أرباب المقامات، وإنما يجعلها أداة للتفكير ووسيلة لتوصيل أفكاره الدينية والتاريخية والاجتماعية... وليس الأدب عند الأمم الراقية سوى التفكير باللغة.
- ابن باديس يستعمل في كتاباته أسلوب المساواة، فيفصّل الألفاظ على حسب المعاني بلا زيادة ولا نقصان، وبعبارة أخرى: أسلوبه وسط بين الإطناب المملّ والإيجاز المخلّ.
- أسلوب ابن باديس في الكتابة سهل ميسّر، تفهمه جميع الطبقات، بل يفهمه حتى الأميّ إذا قرئ عليه، وهو مع سهولته في الفهم صعب وممتنع على من أن أراد أن يقلّده ويحاكيه.
- يلمس القارئ في قلم ابن باديس مسحة حزن وألم وأسى وجدّ كذلك؛ لأنّ الرجل تتوزّعه الشواغل والهموم، ولأنّه لم يعرف طعم الراحة في حياته، فنصف حياته جدّ ونشاط في تحصيل العلم، ونصفها الآخر تدريس وعطاء ونضال.
- ابن باديس رجل معلّم مدرّس عقلاني النزعة؛ لذلك فغالب كتاباته تخاطب العقل لا العواطف، ولذلك قلّ إنتاجه الشعري مقارنة بإنتاجه النثري، وشعره -مع قلته- دون نثره بكثير.

اللمحة الخامسة: توظيفه للكثير من مسائل اللغة في تفسيره

وهذا ما سنتناوله في المطلب القادم إن شاء الله...

المطلب الرابع: مباحث اللغة في تفسير ابن باديس

تمهيد:

هنالك مقدّمتان مهمتان أرى أنه من الضروري جدا أن أبدأ بهما قبل أن أتخلّص إلى
لُباب هذا المطب:

المقدمة الأولى: هي أنّ ابن باديس لم يكن يطمح من خلال دروسه في التفسير إلى إضافة
مجلدات ومباحث جديدة للمكتبة التفسيرية، وإنما هدفه الأول والأخير من التفسير هو
الإصلاح الديني والاجتماعي⁽¹⁾.

يقول الأستاذ عبد الرحمن سلوادي: "...وكان تفكيره -يعني ابن باديس- منصبا على
أن يجعل من التفسير مبدأ انطلاقه لنهوض الأمة الجزائرية، وأساس هديه في الدراسات العلمية
والإصلاح الديني والتربوي، إيماننا منه بأنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدى القرآن
والاستقامة على طريقته"⁽²⁾.

المقدمة الثانية: إذا اعتبرنا تفسير ابن باديس -كما يزعم البشير الإبراهيمي- امتدادا لمدرسة
محمد عبده التفسيرية وتلميذه محمد رشيد رضا = استطعنا أن نصنّف تفسيره ضمن ما يُعرف
بلون "التفسير الأدبي الاجتماعي".

تعريف التفسير الأدبي الاجتماعي:

(1) ينظر: مقال عز الدين قاسي: الإمام عبد الحميد ابن باديس مفسر القرآن حسب علي مرّاد، المقال ضمن كتاب:
ابن باديس موقظ الضمائر، منشورات زكي بوزيد، ص: 282.

(2) عبد الحميد ابن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص:
50.

يقول محمد السيد حسين الذهبي: "يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أنّ التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلَوّن بلون يكاد يكون جديداً وطارئاً على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونُظّم العمران"⁽¹⁾.

أما صاحب كتاب "التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا" فقد صنّف تفسير ابن باديس ضمن كتب التفسير بالرأي المحمود⁽²⁾.

تعريف التفسير بالرأي:

يقول مناع القطان: "التفسير بالرأي: هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد"⁽³⁾.

وسواءً أصنّفنا تفسير ابن باديس ضمن دائرة التفسير بالرأي، أم ضمن دائرة التفسير الأدبي الاجتماعي، أو في غيرهما من المدارس= فلم يقل أحد من الباحثين -حسب اطلاعي القاصر- بأنه ينتمي إلى مدرسة التفسير اللغوي؛ فمن هنا يُفترض ألا يكون عامراً بالمباحث اللغوية.

(1) التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ج 2، ص 401.

(2) التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426هـ، ج 2، ص 723.

(3) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1421هـ-2000م، ص 362.

لكنك إذا أمسكت الكتاب وأخذت تطالعه اندهشت للكمّ الهائل من المسائل اللغوية التي تصادفها أثناء القراءة، بل لن أكون مبالغاً إذا قلت: إنه لا تكود تخلو صفحة منه من مبحث لغوي؛ نحوي أو صرفي أو بلاغي !

ومما يدلّنا كذلك على أنّ تفسير الإمام يحتوي على الكثير من المباحث اللغوية: أنه دائماً بعد ذكر مناسبة الآيات التي يؤدّ تفسيرها؛ يثني بالكلام عن المفردات والتراكيب اللغوية والنحوية التي اشتملت عليها الآيات، واللافت للانتباه -إذا أخذ يتحدث فيما بعد عن معنى الآية- أنه يطبق ما قرّره نظرياً على الآية وينزله عليها، ويوظف تلك القواعد اللغوية النظرية في استنباط المعاني، ولا يقتصر على الجانب النظري اللفظي منها فقط، بل يعدّ ذلك تضييعاً للوقت!

يقول رحمه الله: "وأما مسألة الفنون وكيفية تعليمها فنرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك على اللغة والنحو والصرف والبيان، بتطبيق قواعد هذه الفنون على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة، وأما قراءتها بلا تطبيق -كالجاري به العمل اليوم- فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل"⁽¹⁾.

وفي موضع آخر يصرّح الإمام أنّ الاشتغال بالمباحث اللفظية من دون أن تُرتّب عليها معانٍ تفسيرية؛ يعدّ صورة من صور هجر القرآن الكريم!

يقول رحمه الله: "وفي جامع الزيتونة - عمره الله تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه -ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية، بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه، في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سنته في المباحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأنّ التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل

(1) ابن باديس حياته وآثاره، ج 3، ص 182.

فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقرآن، مع أنَّ أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن!"⁽¹⁾.

المباحث اللغوية الباديسية:

وإذا أردنا أن نحصر المباحث اللغوية التي تعرّض لها الإمام أثناء تفسيره؛ فيمكن أن نضبطها في الأبواب الخمسة التالية:

الباب الأول: مسائل لغوية صوتية، كالفاصلة القرآنية على سبيل المثال:

فمن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [الفرقان: 62].
قال رحمه الله: "وقيل: (شُكُورًا) لمناسبة رؤوس الآي"⁽²⁾.

الباب الثاني: مسائل صرفية:

ومثال ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان: 32].

قال ابن باديس رحمه الله: (نَزَّلَ) يأتي مرادفًا لأنزل والتضعيف أخو الهمزة، ويأتي مفيداً للتكثير فيفيد تكرر النزول وتجديده، وخرّج على هذا قوله تعالى: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - مِنَ الْكِتَابِ - وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) [سورة آل عمران: 3]، وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدرّج لئلا يناقض قولهم جملة واحدة، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة.

وعندي أنَّ (نَزَّلَ) المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة، وجاء لقوته في هذه الآية؛ لأن إنزال الجملة مرة واحدة أقوى من إنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ج 2، ص 408.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 190.

الباب الثالث: مسائل نحوية:

ومن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) [الإسراء: 37].

قال ابن باديس رحمه الله: "ونصب مرحاً بتمش؛ لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه؛ إذ المرح جزئية من جزئيات المشي، فكأنه قال: لا تمرح مرحاً، ونظيره قول الشاعر:

يُعْجِبُهُ السَّخُونُ وَالْبُرُودُ وَالتَّمَرُ، حُبًّا مَا لَهُ مَزِيدُ⁽²⁾

فنصب حباً بيعجب؛ لأن الإعجاب متضمن للحب، أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضاً، ونصب طولاً على أنه تمييز، أي من جهة الطول. والتقدير: ولن يبلغ طول الجبال"⁽³⁾.

الباب الرابع: مسائل لغوية دلالية (معجمية)

ومن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير الآية الأولى من سورة الفرقان: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) [الفرقان: 1].

قال رحمه الله: "(الفرقان) أصله مصدر فرق بمعنى فصل، وهو أبلى في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون، كما كان القرآن أبلى من القراءة لذلك. وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم"⁽⁴⁾.

الباب الخامس: مسائل بلاغية

ومن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [الإسراء: 24].

(1) المرجع السابق، ص 177.

(2) الرجز لرؤية في ملحق ديوانه ص ١٧٢؛ والمقاصد النحوية ٣/ ٤٥؛ وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/ ٢١٠؛ وشرح المفصل ١/ ١١٢؛ واللمع في العربية ص ١٣٣؛ وتاج العروس (سجن) (١)؛ ولسان العرب ١٣/ ٢٠٦ (سجن).

(3) المرجع نفسه، ص 107-108.

(4) المرجع نفسه، ص 153.

قال ابن باديس رحمه الله: "فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفع والراحة، وولدهما يقوم لهما بالسعي، كما يسعى الطائر لفراخه، ويحيطهما بحنوه وعطفه كما يحيط الطائر فراخه، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه، وحذف المشبه به، وأشار إليه بلازمه وهو خفض الجناح، لأن الطائر هو ذو الجناح، وإنما يخفض جناحه حنواً وعطفاً وحيطة لفراخه=فيكون في الكلام استعارة بالكناية"⁽¹⁾.

النتيجة:

فبان من هذه الأمثلة القليلة التي أتينا بها تحت كل باب من الأبواب الخمسة المتقدمة، ومن الأمثلة الكثيرة الأخرى التي أعرضنا عن ذكرها خشية التطويل=أنّ الإمام ابن باديس له باع طويل في علوم اللغة، وأنه لغويّ كبير من الطراز الأول، ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة عقدنا هذا المطلب.

وبان أيضاً أنّ تفسير الإمام ليس مقصوراً على الباحثين الشرعيين فحسب، وإنما هو منجم ثريّ أيضاً للباحثين في الدراسات اللغوية القرآنية، وهذا بعض ما دفعني إلى اختيار موضوع رسالتي: "توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 70.

(2) لم أتحدث كثيراً عن منهج ابن باديس في تفسيره، وعن أشهر طبعاته، وعن مصادره...؛ لأنني أرى أنّ هذه المباحث تسمّن البحث فقط وليست من صميمه، على أنّها قد قُلت كتابة في الكتب وفي الرسائل الجامعية، فمن هنا اقتضت منها على ما له صلة وثيقة بالموضوع فحسب. ومن أراد أن يقرأ توصيفاً للتفسير فليرجع إلى كتاب: التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426هـ، ج 2، من ص 723 إلى 737.

وقبل الدخول في صلب الموضوع وبيان كيف كان الإمام يوظف قواعد النحو في استنباط المعاني التفسيرية، وكيف كان يوائم بين التنظير والتطبيق على الآيات؛ أرى أنه من الضروري أن أمهّد لذلك بمبحث نظري أذكر فيه العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير.

المبحث الثاني: العلاقة بين النحو والتفسير

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: نبذة عن علم النحو وعلم التفسير

المطلب الثاني: نشأة النحو في رحاب القرآن

المطلب الثالث: افتقار المفسر إلى علم النحو

المطلب الرابع: في النهي عن تعاطي التفسير دون زاد

لغوي عتيق

المطلب الخامس: اشتغال النحاة بالتفسير

تمهيد:

إنّ من أهم أدوات فهم أيّ نص من النصوص العربية: علم النحو؛ لأنّ المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فالإعراب يبين المعنى، ويوقف على أغراض المتكلمين، والإعراب هو الذي يفرق بين قولك: "ما أحسن زيداً" و"ما أحسن زيد"، ففي نصب (زيد) تكون (ما) تعجبية، وفي رفع (زيد) تكون (ما) نافية، تنفي إحسان زيد، فالمعنيان مختلفان مع أنّ الألفاظ هي هي، ولولا النحو لما اهتدينا إلى الفرق.

والقرآن الكريم نزل بلسان العرب على الجملة، وطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة؛ لأنّ الله تعالى يقول: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [سورة يوسف: 2]، ويقول: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [سورة الشعراء: 195]، ويقول: (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) [سورة النحل: 103]، ويقول: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) [سورة فصلت: 44].

إلى غير ذلك من النصوص التي تدل على أنه عربي وبلسان العرب، وأنه ليس أعجمياً ولا بلسان العجم، فمن هنا؛ من أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب، ولا سبيل إلى تطلب فهمه الصحيح من غير هذه الجهة، وكل معنى مستنبط من القرآن، غير جار على اللسان العربي؛ فليس من علوم القرآن في شيء.

إذاً فلا بدّ للخائض في تفسير القرآن من زاد لغوي عموماً، ومن زاد نحوي على وجه الخصوص؛ إذ لا سبيل إلى إدراك المعاني إلا بهذا العلم الشريف. وفي هذا المبحث سنتكلم باختصار عن العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير، ويمكن أن نقف على هذه العلاقة من خلال عدة مطالب، لكن قبل ذلك سنعقد مطلباً تمهيدياً نعرّف فيه بالنحو والتفسير.

المطلب الأول: نبذة عن علم النحو وعلم التفسير

ستكرر كلمة النحو وكلمة التفسير كثيرا في هذا المبحث؛ لذلك يحسن بي أن أعرف بالمصطلحين بإيجاز، كما يحسن بي أن أذكر قسيمي التفسير وحاجة كل منهما إلى علم النحو:

أولا- تعريف النحو:

أما النحو في اللغة: فله عدة معان، أوصلها بعضهم إلى سبعة⁽¹⁾، وهي:

- 1- القصد، يقال: نخوت الشيء أنخوه نحوا إذا قصدته، وكل شيء أممته وبمته جميعا فقد نخوته.
- 2- التحريف، يقال: نخا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرفه.
- 3- الصرف، يقال: نخوت بصري إليه، أي: صرفته.
- 4- المثل، تقول: مررت برجل نخوك، أي: مثلك.
- 5- المقدار، تقول: له عندي نحو ألف، أي: مقدار ألف.
- 6- الجهة أو الناحية، تقول: سرت نحو البيت، أي: جهته.
- 7- النوع أو القسم، تقول: هذا على سبعة أنحاء، أي: أنواع.

(1) ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ، ج 15، ص 310.

وقد ذهب جمع من أئمة اللغة إلى أنّ (القصد) هو أوفق المعاني للنحو وأشبهها بالمعنى الاصطلاحي، قال ابن دريد: "ومنه اشتقاق النحو في الكلام، كأنه قصد الصواب"⁽¹⁾.

وتبعه ابن فارس حيث قال: "ومنه سمي نحو الكلام، لأنه يقصد أصول الكلام فيتكلم على حسب ما كانت العرب تتكلم به"⁽²⁾.

النحو في الاصطلاح:

من التعاريف المشهورة للنحو تعريف الشيخ خالد الأزهرى حيث قال: "علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم إعراباً وبناء"⁽³⁾.

وعرفه الفاكهي بقوله: "علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء"⁽⁴⁾.

ويلاحظ هنا أنّ الفاكهي كان أكثر دقة في التعريف؛ إذ استعمل كلمة أواخر الكلم بدل أبنية الكلم التي تشمل أوائل الكلم وأواخره.

ثانياً- تعريف التفسير:

التفسير لغة: تفعيل من الفَسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول، وفعله: كضرب ونصر، يقال: فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرّاً، وفسره: أبانه، والتفسير والفسر: الإبانة وكشف المغطى، وفي لسان العرب: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف

(1) جهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت، ط 1، 1987م، ج 1، ص 575.

(2) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج 5، ص 403.

(3) ينظر: خالد بن عبد الله الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ-2000م، ج 1، ص: 14.

(4) ينظر الحدود النحوية للفاكهي، ص 89، نقلاً عن حاشية الإيضاح في علل النحو.

المراد عن اللفظ المشكل، وفي القرآن: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [سورة الفرقان: 33]، أي: بياناً وتفصيلاً، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال. وقال بعضهم: هو مقلوب من "سفر" ومعناه أيضاً: الكشف، يقال: سfert المرأة سفوراً: إذا ألفت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: إذا أضاء. واصطلاحاً: عرّفه أبو حيان بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب وتتمت لذلك".

ثم خرّج التعريف فقال: فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلّته عليه بالحقيقة، وما دلّته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهرة شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يعمل على غير الظاهر، وهو المجاز، وقولنا: "وتتمت لذلك". هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضيح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك.

وقال الزركشي: التفسير: علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ: وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه⁽¹⁾.

ثالثاً- أنواع التفسير:

(1) ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1421هـ-2000م، ص 334-335.

قسّم العلماء التفسير قسمين؛ تفسير يرجع إلى النقل، ويعتمد على المأثور من القرآن والسنة وأقوال الصحابة، وهو ما يُعرف بالتفسير بالمأثور؛ وتفسير يرجع إلى الاجتهاد والرأي، على وفق أصول دوتها علماء التفسير، وضوابط يجب أن يعتمد عليها كل من رام تفسير كتاب الله، وهذا النوع يعرف بالتفسير بالرأي، وسأتكلم على النوعين بإيجاز:

1- تعريف التفسير بالمأثور:

* **التفسير بالمأثور:** هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التي ذكرت سابقاً في شروط المفسر، من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة؛ لأنها جاءت مبيّنة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين؛ لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح.

* حكم التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور هو الذي يجب اتباعه والأخذ به؛ لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ في كتاب الله.

2- تعريف التفسير بالرأي:

* **التفسير بالرأي:** هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد -وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها- فالرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط في كتاب الله، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وقد صنفوا تفاسير على

أصول مذهبهم، كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، والجبائي، وعبد الجبار، والرماني، والزخشري وأمثالهم.

* حكم التفسير بالرأي:

وتفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه، قال تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، وقال صلى الله عليه وسلم: "من قال في القرآن برأيه -أو بما لا يعلم- فليتبوأ مقعده من النار"، وفي لفظ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"⁽¹⁾.

وليس من نافلة القول أن أذكر بأن دور علم النحو في التفسير بالمأثور قليل، وأثره ضئيل، إذ يُعتمد هنا على النقل عن وصفوا بسلامة اللغة، وقلة احتياجهم إلى غير السليقة في فهم معاني كتاب الله، لكنني لا أستطيع أن أنفي مطلق الاحتياج إلى علم النحو في تأليف هذا النوع من التفسير، على قلة هذا الاحتياج، فهذا تفسير ابن جرير الطبري الذي وصفه الزرقاني بأجل تفاسير المأثور، يوجه الأقوال، ويذكر الإعراب والاستنباط، وقد يرجح وجهاً إعرابياً على آخر، لا سيما عند الكلام على القراءات.

وما يهمننا هنا هو دور علم النحو في التفسير بالرأي، فقد تقرّر سابقاً أن التفسير بالرأي الجائز يحتاج إلى أصول وضوابط يوظفها للكشف عن المراد من النص، ومن المقرر أن علم النحو من أبرز هذه الأصول وهذه الأدوات التي يحتاج إليها المفسر في اجتهاده، ونلمس هذا في تقسيم ابن خلدون التفسير قسمين: التفسير النقلي، والتفسير الذي يرجع إلى

(1) ينظر المرجع السابق، ص 358-363، وينظر أيضاً التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426هـ، ج 2، ص: 582 وما بعدها.

اللسان، وقال عن الأخير: "والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب"⁽¹⁾، فجعل هذا النوع من التفسير معتمداً على علوم اللسان، يجلي منزلة علم النحو فيه.

ومن مظاهر منزلة علم النحو في هذا التفسير، اشتراط العلماء في المفسر معرفة النحو، إذ جعلوا علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة من أبرز العلوم التي يحتاج إليها المفسر، لأنّ المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا غرو بعد الذي سبق، أن يكون علم النحو من أبرز العمد التي يقوم عليها تعريف التفسير.

وبعد هذه اللمحة الخاطفة سنذكر أنّ علم النحو نشأ في رحاب القرآن الكريم والذب عن حياضه ومعانيه، وهذا المطلب مما يبين وجه العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير.

(1) المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر-بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ-1988م، ص: 358-363.

المطلب الثاني: نشأة النحو في رحاب القرآن

* السبب غير المباشر لوضع علم النحو:

مما يدلنا على الارتباط الوثيق بين علم النحو وعلم التفسير=أنّ علم النحو أساساً نشأ في رحاب القرآن الكريم، وبين أحضانه، وفي ظلاله، وبوحي من قدسيته، ووجوب المحافظة عليه، وصيانتته من اللحن وفساد الألسنة وتكسرها؛ وأنّ ترعرع النحو ونموّ مباحثه ونضجها كانت في هذه الرحاب، وبالحرص على خدمته وتوثيق نصه والتشرف بالمساهمة في تحليل أساليبه وإيضاح معانيه.

يجمع العلماء أنّ سبب وضع النحو هو فشو اللحن بفساد الألسنة واختلالها بعدما أخذ العرب الأقحاح يختلطون بغيرهم من أبناء الأمم الأخرى الذين دخلوا في الإسلام أفواجا.

واللحن داء بدأ مبكراً منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روي أنّ أحد الناس لحن في مجلسه عليه السلام فقال: أرشدوا أخاكم، وروى الزبيدي عن قاسم بن أصبغ بسنده إلى أبي عثمان النهدي قال: إنّ كتاب عمر بن الخطاب أتاهاهم وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء، وذكر فيه: "تعلموا العربية".

فهذا وغيره يدل على أنّ خطر اللحن بدأ يزحف مبكراً، وأنه أخذ يفشو وينتشر ويكون ظاهرة واسعة الانتشار فادحة الخطر على الفصحى ونص القرآن الكريم، وهذا ما يقرره مؤرخو اللغة العربية وعلماءها.

إذن اختلال الألسنة والخطأ في النطق باللحن في الفصحى هو السبب الفعال في نشأة النحو وتقنين قواعد العربية واستنباطها للنطق الصحيح، وهو سبب عام وغير مباشر يجمع عليه علماء العربية.

* السبب المباشر لوضع علم النحو:

والسبب المباشر لوضع علم النحو هو تسرّب اللحن لألفاظ القرآن الكريم، فقد روي أنّ زيادا طلب من أبي الأسود أن يضع النحو، واستغفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: (أَنَّ الله بريء من المشركين ورسوله) بكسر اللام من (رسوله)، فقال: ما ظننت أمر الناس صار إلى هذا، فرجع إلى زياد، فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير.

ومما جعل سببا مباشرا أيضا لوضع النحو، اللحن في آية الحاقة: (لا يأكله إلا الخاطئون) بقراءتها (الخطئين) منصوبة، قال الأنباري: وروي أنّ سبب وضع علي عليه السلام لهذا العلم أنه سمع أعرابيا يقرأ (لا يأكله إلا الخطئين) فوضع النحو.

إذن فالنموذجان المتقدمان -وربما غيرهما من القرآن- يجعلاننا نعتقد أنّ اللحن في القرآن بدأ مبكرا أيضا، وأنه كان فيه أكثر من غيره، وبناء على ذلك كله نستطيع أن نطمئن إلى القول بأنّ القرآن الكريم كان السبب الأكبر في نشأة النحو، وأنّ هذه النشأة كانت في رحابه، وأنّ اللحن في قراءته كان هو الالفت للنظر والداعي لتقنين كلام العرب بما يحفظ عليهم لغتهم فصيحة سليمة من الاضمحلال والذهاب.

وإضافة إلى ما تقدم من القول نسوق بعض الأدلة الداعمة والموضحة لهذا الرأي، المتمثلة فيما يلي من أسباب خاصة وعامة:

فالأسباب الخاصة هي:

أ- نماذج اللحن في بعض الآيات القرآنية التي كانت باعثا على وضع النحو في كثير من الروايات.

ب- جاء في بعض روايات دعوة زيادِ أبا الأسود لوضع النحو النص الآتي: "اعمل شيئاً تكون فيه للناس إماماً، وينتفع الناس به، وتعرب به كتاب الله" أو "وتعرف به كتاب الله عز وجل".

فإعراب كتاب الله أو معرفته باعث أصيل على وضع النحو وتأسيس قواعده.

ج- نشأ النحو بسيطاً ساذجاً على يد أبي الأسود ثم أخذ ينمو -شأن كل وليد- وتتسع قواعده وتتضح معالمه في رحاب القرآن الكريم؛ إذ أنّ النحويين كان القرآن أوثق وأفصح نص لديهم يبنون عليه قواعدهم، وهم بخدمته يتقربون إلى الله سبحانه وإليه يزدلفون، فاتجهوا إلى إعرابه وتأسيس القواعد على سمته، وإلى تأليف كتب "معاني القرآن" التي هي في الواقع بداية التفسير الفني؛ مملوءة بقواعد النحو وأصوله والتطبيق عليها وشرحها وإيضاح القول فيها.

فنشأة النحو كانت بوحى من القرآن الكريم وصيانتها له -قبل غيره- من اللحن، ونمؤه ورسوخ أمره كانا في رحابه وعلى مادبته الشهية الواسعة.

وأما الأسباب العامة التي دعت إلى نشأة النحو في رحاب الكتاب العزيز فهي:

أ- الحفاظ على سلامة القرآن الكريم من اللحن أول شيء يتبادر إلى أذهان العلماء، وهو واجب ديني، وقد جاءت آثار كثيرة في الحث على تعلم إعرابه وتعليمه، من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائب)، وقول عمر بن الخطاب: (من قرأ القرآن فأعربه كان له أجر شهيد).

ب- توثيق نص القرآن لحفظه من الخطأ في قراءته ومن اختلال روايته ومن اللحن في ضبطه بدأ مبكراً؛ إذ منع النبي عليه الصلاة والسلام كتابة كلامه معه، وأمر أصحابه بحفظ القرآن في صدورهم كما أنزل، ثم اتخذ كتاباً للوحي، وكان النبي عليه السلام يدهم على موضع المكتوب من سوره.

ج- من المسلّم به أنّ العلوم الإسلامية والعربية كلها نشأت بوحى من القرآن الكريم، ونضجت في رحابه لخدمته⁽¹⁾.

فبان من هذا العرض المختصر أنّ السبب الرئيس لوضع علم النحو هو فشوّ اللحن في ألفاظ القرآن الكريم، وأنّ اللحن في أغلب أحواله يؤثر على المعاني، بل ويقلبها تارة رأساً على عقب، ومعلوم أنّ علم التفسير يبحث في معاني القرآن، ولا يمكن أن نتوصل إلى المعنى الصحيح إلا عبر اللفظ الصحيح الذي تكفل علم النحو بصيانتة والمحافظة عليه.

ولا غرو أن يكون هذا العلم الذي نشأ وترعرع في محاضن القرآن الكريم الأداة البارزة في فهم النصّ القرآني، والوسيلة الموضّحة لمدلّولاته، لا سيما بعد أن اختلطت الألسنة، فقد كان الأوائل لا يحتاجون إلى كثير من هذه العلوم، فالقرآن نزل بلغتهم، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلّهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وعليه فقد احتيج إلى علم النّحو في التفسير بعد فساد الألسنة، وذلك حاصل لتكاثر العجم، ودخول الأجناس كافة في دين الله، فقلّت الملكات الصافية التي يرجعون إليها، وصارت علوم العربية وتآليفها هي التي تلحقهم بالعرب، وصاروا يستعينون بها على فهم تراكيب القرآن ودلالاته.

يقول ابن خلدون في المقدمة: "...ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب، فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من

(1) هذا المطلب ملخّص من كتاب: النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيدة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان-ليبيا، الطبعة الثالثة: 1399هـ-1990م، من ص: 30 إلى 50، وينظر الجزء الأول والثاني من تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، الناشر دار المعارف - مصر، الطبعة: الأولى، 1960 - 1995م، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الشيخ محمد الطنطاوي رحمه الله، تحقيق أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، 2005م-1426هـ، ص: 30 وما بعدها.

كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب، وعلى منهاج بلاغتهم⁽¹⁾.

وبعدما بينا أنّ النحو نشأ في رحاب القرآن الكريم، سنبين في المطلب القادم إن شاء الله افتقار المفسر إلى علم النحو العربي.

(1) المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر-بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ-1988م، ص: 252.

المطلب الثالث: افتقار المفسر إلى علم النحو

يقول الأستاذ الإبراهيمي -رحمه الله- في تقديمه لمجالس التذكير: "تفسير القرآن: تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه، والتفهم تابع للفهم؛ فمن حسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه، وإن كتب فيه المجلدات، وأملى فيه ألوف المجالس. وفهم القرآن يتوقف -بعد القرينة الصافية والذهن النير- على التعمق في أسرار البيان العربي"⁽¹⁾.

وقال في موضع آخر يصف دروس ابن باديس التفسيرية: "...فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها، وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين؛ لسان العرب، ولسان الزمان"⁽²⁾.

وقال ابن باديس نفسه في خطبة افتتاح دروس التفسير: "فقد عدنا -والحمد لله تعالى- إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير، نقتطف أزهارها ونجني من ثمارها بيسرٍ من الله تعالى وتيسير، على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات، بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة الله عليهم أجمعين.

وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

1 - تفسير ابن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلّي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 250.

(2) المرجع نفسه، ج 1، ص 327.

- 2 - وتفسير الكشاف، الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.
 - 3 - وتفسير أبي حيان الأندلسي، الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية، وتوجيهه للقراءات.
 - 4 - وتفسير الرازي، الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك.
- إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام⁽¹⁾.

انطلاقاً مما نقلناه عن الإمامين (الإبراهيمي وباديس) تتبين لنا العلاقة الوطيدة بين علم النحو وعلم التفسير، فالإبراهيمي في النقلين المتقدمين يؤكد على أنّ القرآن مفتقر في فهمه وإفهامه إلى البيان العربي، ولا شك أنّ علم النحو هو مفتاح البيان العربي الذي اشترطه للمفسر، وهو داخل فيه دخولاً أولياً وأولياً؛ لأنّ المفسر - كما لا يخفى - يبحث في معاني القرآن، ولا يتأتّى إدراك المعنى إلا عبر التراكيب التي يتناولها بالدراسة علم النحو، فمن هنا كان علم النحو دعامة لعلم التفسير، بل لا ينبغي للمتكلم أن يخوض في تفسير القرآن إلا إذا أحكم أدوات البيان العربي، وأولها وأولها بالعناية: علم النحو.

إذاً فلا بدّ للمفسر من غُدّة في البيان العربي عموماً ومن عدّة في النحو على وجه الخصوص، وقد صرّح أيضاً بهذا ابن باديس في خطبة افتتاحه الذكر حيث قال: "على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية"⁽²⁾، ووجه الاستدلال من هذا النقل: هو أنّ تذوق الكلام وحمل التراكيب على أبلغ

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 162-163.

(2) المرجع نفسه.

أساليبها البيانية = لا يكون إلا بعد الفهم الصحيح الذي يرشد إليه علم النحو، وإذا كانت البلاغة روحا للكلام فإنّ النحو كالجسد له، ولا روح بلا جسد.

ومما يدلنا أيضا على الاتصال الوثيق بين علم التفسير والنحو= أنّ التفاسير الأربعة التي نصّ عليها ابن باديس - وإن اختلفت منازعها ومشاربها- يجمع بين أصحابها أنهم كلهم زيادة على رسوخهم في الشريعة؛ أئمة في علوم اللغة العربية والبيان، ولا أظنّ أنّ الزمخشري وأبا حيان يحتاجان إلى من ينبه على تعلّقهما القويّ باللغة العربية!

وما دمتُ قد تحدثت عن الزمخشري وأبي حيان والطبري والرازي فيحسن بي أن أذكر من كلامهم ما يدل على الصلة الوثيقة بين علم النحو وعلم التفسير.

قال الزمخشري -رحمه الله- في مقدمة تفسيره، في سياق حديثه عن العلوم التي يفتقر إليها من يريد سلوك طرائق التفسير، وينبغي أن نجعل خطأ كبيرا تحت قوله (فارسا في علم الإعراب): "لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظاهرها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، وردّ عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدّما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس درّاكا للمحة وإن لطف شأنها، متنبها على الرزمة وإن خفي مكانها، لا كزّا جاسيا، ولا غليظاً جافياً، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه"⁽¹⁾.

(1) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1407هـ، ج 1، ص 2-3.

ويقول أبو حيان في مقدمة تفسيره أيضاً، في معرض ذكر العلوم التي يحتاجها المفسر:
"وإذ قد جر الكلام إلى هذا، فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم على الاختصار،
ونبه على أحسن الموضوعات التي في تلك العلوم المحتاج إليها فيه فنقول:

النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه:

الوجه الأول: علم اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً... الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة،
فيؤخذ ذلك من كتبهم⁽¹⁾.

ويقول ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره: "وأول ما نبدأ به من القيل في ذلك الإبانة
عن الأسباب التي البدائية بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أخرى، وذلك البيان عما في آي
القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان رياضة العلوم العربية، ولم
تستحكم معرفته بتعاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية"⁽²⁾.

فهو كما ترى في هذه الأسطر يذكر أنه ألف هذا الكتاب لمن لم يتمرس في علوم
العربية، التي من جملتها علم النحو، فكأنه يقول لنا: إنه لا ينبغي أن يخوض في تفسير القرآن
إلا من أحكم علوم العربية!

أما الرازي فلم أوفق في العثور على نص صريح من تفسيره، يذكر فيه حاجة المفسر إلى
علم النحو، لكننا نستطيع أن نفهم ذلك بالقوة من أسلوبه الجميل البليغ الرصين، الذي
يقول لكل من ينظر فيه ويطالعه: إذا لم تستحكم لديك ملكة العربية فإياك أن تقرب
التفسير!

(1) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق
صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة: 1420هـ، ج 1، ص 14.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، أحمد محمد
شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م، ج 1، ص 7.

الخلاصة:

إذاً فكلُّ من الطبري وأبي حيان والزخشي والرازي قد تكلموا تصرّحاً أو تلويحاً على العلاقة الوطيدة بين النحو والتفسير، واكتفيت في هذا المطلب بكلام هؤلاء الأئمة الأربعة؛ لأنهم عمدة ابن باديس فيما كان يرجع إليه من كتب التفسير، وبهذا الصنيع أكون قد استفدت فائدتين:

الأولى: أنني دلّلت على العلاقة بين علم التفسير والنحو من كلام المفسرين، وهذا يعطي الدليل قوة ومصداقية.

الثاني: أنّي لم أحد عن موضوع البحث؛ لأنّ عمود البحث هو توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري عند ابن باديس، والنقول التي أتيت بها كلها من المصادر التي كان يرجع إليها ابن باديس.

زيادة بيان واستدلال:

ومالي أذهب بعيداً في الاستدلال على العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير، وأمامي دليل من أقوى الأدلة على هاتيك العلاقة؛ إذ ليس هنالك أدلّ عليها من كون علم النحو داخلاً في ماهيّة وتعريف وحدّ علم التفسير!

يقول أبو حيان، وهو من أئمة النحو وأئمة التفسير، وهو من مصادر ابن باديس كما تقدم = يقول في تعريف علم التفسير: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"⁽¹⁾.

ثم شرح التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها"

(1) البحر المحيط في التفسير، ج 1، ص 26.

أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلّته عليه بالحقيقة، وما دلّته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يعمل على غير الظاهر، وهو المجاز، وقولنا: "وتتمت لذلك". هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضيح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك⁽¹⁾.

وبالجملة فالنحو هو مفتاح الإحساس والشعور بجمال القرآن، فلا يمكن تذوق حلاوة القرآن إلا بتعلمه، ولا سبيل إلى إدراك إعجازه إلا عن طريق معرفة لغة العرب، ومعرفة ما كان عليه العرب الذين نزل القرآن في زمنهم من الفصاحة والبيان واللّسن، ومن لم تكن له بذلك دراية، ولا له عليه إقبال؛ فشأنه شأن الأعجمي الذي يعرف الإعجاز في القرآن من عجز العرب الأقدمين عن الإتيان بمثله؛ إذ يتعذر على المرء الذي لم يُتقن اللغة العربية ولم يضطلع بأدبها أن يُدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وشمّوه، وما يتضمنه من المعجزات الباهرة، ألم تر أن البدويّ راعي الغنم كان يسمع القرآن فيختر له ساجداً؛ لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور؟!².

أكتفي بهذا القدر، وسأذكر في المطلب القادم إن شاء الله حرمة تعاطي التفسير دون زاد لغويّ عتيّد، معتمداً في ذلك على كلام المحققين من العلماء، وهو مطلب يتفرع عن العلاقة التي أشرنا إليها هنا ويؤكدّها كذلك.

(1) المرجع السابق.

المطلب الرابع: في النهي عن تعاطي التفسير دون زاد لغوي عتيد

هذا المطلب متفرّع عن المطلب الذي قبله (العلاقة بين النحو والتفسير)، وهو مؤكد لما جاء فيه، وسأفتحه ببعض الأخبار التي رويت في النهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي، ناقلاً ذلك من تفسير الطبري:

قال رحمه الله: "ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي

- حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي، قال: حدثنا شريك، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)⁽¹⁾.

- وحدثني أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، قال: حدثنا حفص ابن غياث، عن الحسن بن عبيد الله، عن إبراهيم، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (أيُّ أرضٍ تُقلُّني، وأيُّ سماءٍ تُظلُّني، إذا قلتُ في القرآن ما لا أعلم)⁽²⁾.

- حدثنا به العباس بن عبد العظيم العمري، قال: حدثنا حبان بن هلال، قال: حدثنا سهيل أخو حزم، قال: حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ)⁽¹⁾.

⁽¹⁾ أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (2098) (2468) التّسائيقي السنن الكبرى كتاب فضائل القرآن باب من قال في القرآن بغير علم (8227) (8228) والترمذي في السنن تفسير القرآن باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه رقم (2950) (2951) والطبري في جامع البيان (73) قال الترمذي: هذا حديث حسن.

⁽²⁾ أخرجه مالك في الموطأ رواية أبي مصعب الزهري كتاب الجامع باب ما يُخاف من اللسان (2079)، وابن أبي شيبة في المصنف كتاب فضائل القرآن باب من كره أن يفسر القرآن (30731) وسعيد بن منصور في السنن كتاب فضائل القرآن (39) والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: 375) والطبري في جامع البيان (78)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1561).

* وجه الاستدلال من هذه الأخبار:

فهذه الأخبار باختلاف رواياتها وطرقها تدل على شناعة القول في القرآن بالرأي المذموم، ويدخل في جملة القائلين بالرأي المذموم كل من تكلم في تفسير القرآن وهو جاهل بعلوم العربية عموماً وبالنحو خصوصاً؛ لأنّ هذا سيوقعه - لا محالة - في الخطأ، وفي القول على الله بغير علم، وهو من أكبر الكبائر، يقول سبحانه وتعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [سورة الأعراف: 33].

* زيادة بيان وإيضاح:

والتفسير بالرأي يُقصد به التفسير المعتمد على الاجتهاد، لا على مجرد النقل، والاجتهاد عند العلماء هو: "بذل الجهود على قدر الوسع والإمكان، والتفكير في معنى النص في المنصوص عليه، لإدراك المقصود، وهو نيل الحكم به⁽²⁾"، وبذل الجهود والتفكير يحتاجان إلى أصول وضوابط وأدوات فكرية للوصول إلى الإدراك واستخراج الأحكام؛ إذن فهناك رأي معتد به، قائم على هذه الأصول والضوابط، ورأي فاسد مذموم، حاد عنها، وعلى هذا الأخير يُحمل النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فقد حمل العلماء حديث (من تكلم في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) على عدة معان، منها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، وأولها وأولها بالعناية علم النحو.

(1) أخرجه أبو داود في السنن كتاب العلم باب الكلام في كتاب الله بغير علم (3652) الترمذي في السنن أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (2952) والنسائي في السنن الكبرى كتاب فضائل القرآن باب من قال في القرآن بغير علم (8229) والطبري في جامع البيان (78) وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم..

(2) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م، ج 2، ص 205.

إذاً إن عددنا التفسير ضرباً من ضروب الاجتهاد؛ فإنّ الاجتهاد لا يصح إلا ممن توفرت فيه أدوات المجتهد، ومن هذه الأدوات علم النحو، وهذا ما أطبقت عليه كتب الأصول قديمها وحديثها.

يقول الرازي في المحصول في شروط الاجتهاد: "فهذه هي العلوم الأربعة، وأما العلمان المقدمان فأحدهما علم شرائط الحد والبرهان على الإطلاق، وثانيهما معرفة النحو واللغة والتصريف؛ لأن شرعنا عربي فلا يمكن التوصل إليه إلا بفهم كلام العرب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا بد في هذه العلوم من القدر الذي يتمكن المجتهد به من معرفة الكتاب والسنة" (1).

وقبله قال صاحب المستصفى في شروط المجتهد: "معرفة اللغة والنحو على وجه يتيسر له به فهم خطاب العرب، وهذا يخص فائدة الكتاب والسنة" (2).

ومن مظاهر منزلة علم النحو في التفسير، ومما يؤكد على فداحة تعاطي التفسير بلا زاد لغوي = اشتراطُ العلماء في المفسر معرفة النحو، فقد أجمع المصنفون في علوم القرآن على هذا أيضاً.

يقول الزرقاني في العلوم التي يحتاجها المفسر: "وقد بين العلماء أنواع العلوم التي يجب توافرها في المفسر، فقالوا هي اللغة، والنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم التوحيد، ومعرفة أسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة

(1) المحصول، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1418هـ - 1997م، ج 6، ص 24.

(2) المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م، ص 343.

للمجمل والمبهم، وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي"⁽¹⁾.

وقال الزركشي في مآخذ التفسير: "...الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، وقد ذكره جماعة ونص عليه أحمد بن حنبل في مواضع، وروى البيهقي في شعب الإيمان عن مالك بن أنس قال لا أوتي برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا"⁽²⁾.

النتيجة:

فبان من هذا العرض المختصر أنّ الخوض في تفسير القرآن من غير زاد لغوي؛ أمرٌ شنيع للغاية، وكبيرة من الكبائر. ويمكن أن أعيد صياغة الكلام عن هذه المسألة في النقاط الثلاثة الآتية:

- 1- تفسير القرآن بلا زاد لغوي أمر محرم، بدليل مجموع الآثار التي وردت في المسألة، والتي نقل الطبري في مقدمات تفسيره طرفاً طيباً منها، وهي لا تسلم من مقال من ناحية الصناعة الحديثية، لكن تشهد لها نصوص أخرى لا خلاف في صحتها، كقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [سورة الأعراف: 33]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، وهو حديث متواتر، يغني تواتره عن تخريجه، ووجه

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، ج 2، ص 51.

(2) البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ - 1957م، ج 2، ص 156.

الاستدلال منه: أنّ المراد من الكذب في الحديث الكذب على النبي عليه الصلاة والسلام في الدين؛ بأن ننسب إليه تحريم حلال أو تحليل حرام عمداً⁽¹⁾، والكلام في القرآن بلا لغة قد يؤدي إلى هذا أيضاً، إذاً فمن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، والله أعلم.

2- إطباق الأصوليين في باب "شروط المجتهد" على أنّ الاجتهاد لا يكون إلا إذا حصل المجتهد أدوات كثيرة، من أهمها علم النحو.

3- والأداة نفسها (علم النحو) أجمع الكتبة في علوم القرآن والمفسرون في مقدمات تصانيفهم على جعلها من شروط المفسر أيضاً.

كل ما تقدم يبيّن حرمة الإقدام على التفسير بلا لغة، ويجلي العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير، وبقي مظهر آخر يجلي هذه العلاقة، وهو اشتغال النحاة بالتفسير، وسنرجئ الكلام عنه إلى المطلب القادم إن شاء الله تعالى.

(1) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد-السعودية-الرياض، الطبعة الثانية، 1423هـ - 2003م، ج 1، ص 183.

المطلب الخامس: اشتغال النحاة بالتفسير

هذا المطلب يبين أيضا العلاقة الوطيدة بين التفسير والنحو، فقد اختص بعض اللغويين والنحويين بتأليف خاصة في تفسير القرآن، ذات منهج مستقل، هي كتب المعاني وكتب إعراب القرآن، وسأشير إليها بإيجاز لتكتمل صورة العلاقة التي تجمع بين علمي النحو والتفسير، ولتبيان أثر علم النحو في التفسير:

1- كتب المعاني⁽¹⁾:

تعتمد هذه الكتب إلى الكلام على لغة القرآن، وبيان وجوه إعرابه، والوقوف عند مشكله، وتحلية معانيه، وترتبط بما يشكل في القرآن، ويحتاج إلى بعض العناية في فهمه، فهذه الكتب تمثل صورة من صور التفسير اللغوي، وفيها يتضح أثر علم النحو في التفسير. وقد كثر المؤلفون في هذا الميدان من المتقدمين، وشاع هذا العنوان ردحا من الزمن، وانكب على الكتابة فيه معظم علماء العربية في زمنهم، وسأعرض بعض النماذج على هذا النوع من التأليف توضيحا له:

أ- كتاب مجاز القرآن:

ألف هذا الكتاب أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ)، وهو من أقدم ما وصل إلينا في هذا الفن، وقد عدّ بعض الباحثين أبا عبيدة أول من صنف في معاني القرآن من أهل اللغة.

وكلمة (مجاز) في عنوان الكتاب لا تحمل على المعنى الاصطلاحي عند علماء البلاغة، بل يريد بها الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، فهو يذكر الآية ثم يقول: ومجازة، يريد:

(1) ينظر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1432هـ، ص: 255 وما بعدها.

معناه. وأبو عبيدة في كتابه يقدم تفسيراً لغوياً يقوم على قدر من الحرية، ولا يتقيد بقوانين المذهبين النحويين، البصري والكوفي؛ إذ كانا في دور التكوين، وهو يُعنى بالشواهد الشعرية لتوضيح الآيات القرآنية عناية بالغة، وقد صرف جهده إلى الجانب اللغوي، فشغله ذلك عن متابعة القصص القرآني وأسباب النزول، إلا إذا اقتضى فهم النص ذلك، ويمتاز منهجه باليسر والقرب، فهو يحتكم إلى الفهم والذوق اللغوي ويرجع إلى كلام العرب.

ب- كتاب معاني القرآن:

ألفه الفراء (307هـ)، وهو كتاب يعرض فيه الفراء الآيات، ثم يتناولها بالتحليل اللغوي والنحوي، وهو يعتمد على لغات العرب التي يحيط بها في توجيه المعنى، كما يعتمد على القراءات، وهو ضالع فيها، مطلع عليها اطلاعاً واسعاً، وهو ينتقد القراءات ويرجح بعضها على بعض من خلال توجيه المعنى.

والفراء في كتابه يوسع دائرة التأويل، وهو من أبرز أدواته في توجيه الإعراب، ويعتد بالقياس ويكثر منه، وتظهر نظرية العامل جلية في كتاب الفراء؛ إذ هو المقتضي للإعراب عنده، وهذا العرض الموجز لمنهج الكتاب يبين جل اهتمامه بالناحية النحوية واللغوية في أثناء التفسير، إذ يظهر فيه أثر النحو بوضوح، مما يجعله من كتب التفسير اللغوي التي تبرز متانة العلاقة بين علمي النحو والتفسير.

2- كتب الإعراب:

الإعراب في اللغة: الإبانة والإفصاح، وأعرب الرجل عن نفسه: إذا بين وأوضح، والإعراب في الاصطلاح أيضاً من هذا القياس، إذ بالإعراب يفرق بين المعاني في الفاعل والمفعول به، والنفي والتعجب والاستفهام... وسائر أبواب هذا النحو من العلم، ولا تخفى الرابطة الوثيقة بين المعاني والإعراب، لذا قالوا: الإعراب فرع المعنى، ولا يتصور أن يقدم أحد على إعراب نص يجهل معناه، فإعراب النص تحلية لمعانيه وكشف لأحكامه.

وقد ظهرت تآليف تعنى بإعراب كلمات القرآن وجمله، وانحصارها في هذه الناحية من القرآن جعلها علماً قائماً بذاته، ثم تباينت مناهج العلماء في إعراب القرآن الكريم، فمنهم من اقتصر على الإعراب المشكل فقط، ومنهم من عرض لإعراب غريبه، ومنهم من قصد إلى إعرابه كاملاً، ومنهم من عرض أشكال الإعراب وجعل لكل شكل باباً، ومنهم من جمع بين أوجه القراءات والإعراب... ومن أشهر كتب إعراب القرآن التي اعتنت بالعلاقة بين النحو وفهم معاني القرآن:

أ- كتاب معاني القرآن وإعرابه:

ألف هذا الكتاب الزجاج (ت 311هـ)، وتعرض فيه للإعراب والمعاني، ويظهر هذا من قوله: "هذا كتاب مختصر في إعراب القرآن ومعانيه"⁽¹⁾، وهو في كتابه يثبت الآية، ثم يحلل بعض ألفاظها على طريقتيه في الاشتقاق اللغوي، فيذكر أصل الكلمة والمعنى اللغوي الذي تدل عليه، ثم يورد الكلمات التي تشاركها في حروفها، ويستشهد على رأيه بما يؤيده من كلام العرب وأشعارهم، ثم يبدأ بإعراب الآية، وهو في كل هذا يناقش النحويين الآخرين، وقد يأخذ بآرائهم أو يردّها.

ب- كتاب إعراب القرآن:

ألفه ابن النحاس، وقد بين منهجه في مقدمة كتابه فقال: "هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله إعراب القرآن، والقراءات التي تحتاج أن يبين إعرابها، والعلل فيها، ولا أخليه من اختلاف النحويين، وما يحتاج إليه من المعاني، وما أجازه بعضهم وضعفه بعضهم،

(1) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب-بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م، ج 1، ص 39.

وزيادات في المعاني وشرح لها" ⁽¹⁾، فخطبته في مفتتح كتابه دالة بذاتها على هذا الارتباط الوثيق بين علم النحو وتوجيه معاني الآيات القرآنية.

ج- كتاب التبيان في إعراب القرآن:

ألفه العكبري (ت 616هـ)، وأعرب فيه القرآن كاملاً، وهو يذكر فيه وجوه القراءات، ويبين وجوه إعرابها، ولا يخلو الكتاب من إشارات إلى معنى الآية، وهو يستشهد بالشعر العربي على ما يذهب إليه، وقد يذكر أئمة النحو والتفسير الذين ينقل عنهم، ويذكر وجوه الإعراب في الآية ولا يرجح بينها، وهذا كثير في كتابه، وربما رجح بين الوجوه بتمريض أحدها، وذلك بأن يقرر وجهاً ثم يُتبعه بكلمة "قل"، وقد يستغني عن الإعراب ببيان المعنى فقط ⁽²⁾.

فبان من هذه الإطلاقة السريعة على كتب المعاني وإعراب القرآن الكريم الارتباط الوثيق بين النحو والتفسير، فكثير من أئمة النحو مفسرون، وكثير من أئمة التفسير نحاة، فلا وجه إذًا للفصل بين النحو والتفسير.

وبهذا المطلب أكون قد ختمت مبحث "العلاقة بين النحو والتفسير"، وبه يتم القسم النظري من البحث، ومنه أتخلص إلى القسم العملي، وهذا أوان الشروع فيه على بركة الله.

(1) إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ، ج 1، ص 13.

(2) هذا المطلب ملخص من كتاب: النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيدة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان-ليبيا، الطبعة الثالثة: 1399هـ-1990م، ومن كتاب التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1432هـ.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: توظيف المعارف والذكريات في استنباط المعاني

المبحث الثاني: توظيف أدوات المعاني في الاستنباط

المبحث الثالث: توظيف التوابع في الاستنباط

المبحث الرابع: متفرقات

تمهيد:

بعد المباحث التمهيدية التي تطرقنا إليها باختصار في القسم النظري، جاء أوان الشروع في المقصود من البحث، أعني بذلك: كيف كان الإمام ابن باديس يوظف علم النحو ببراعة في اقتناص المعاني التفسيرية الدقيقة، فهذا القسم كله أمثلة على ذلك إن شاء الله.

سبق وأن أشرت في المقدمة أنني اتبعت هنا منهجين اثنين؛ هما المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي الوصفي، فقد قرأت تفسير الإمام قراءتين؛ إحداها سريعة، والأخرى عميقة، واستخرجت كل المواضع التي وظّف فيها الإمام النحو في الاستنباط، ثم قمت بترتيبها قدر الإمكان، وتوزيعها على المباحث والمطالب، كما قمت أيضا بعنونها، والتعريف بها لغة واصطلاحاً، معتمداً في الغالب على كتب جمال الدين بن هشام الأنصاري، وهنا ينتهي دور المنهج الاستقرائي.

ثم أسوق الآية المفسرة، وبعدها أستشهد بنص كلام الإمام ابن باديس الذي وظّف فيه النحو في التفسير، ثم يأتي دور المنهج التحليلي الوصفي، فأوضح بأسلوبي وبلغته تلائم ذوق العصر براعة الإمام في توظيف علم النحو، وكيف واءم بين التنظير والتطبيق، وكيف كان استعماله للنحو انتقائياً عملياً نفعياً، وكيف طوّع النحو لخدمة التفسير.

ولا بأس أن أختصر الطريقة التي سأمشي عليها في هذا الفصل في هذه النقاط:

1- التعريف بالمسألة النحوية.

2- الآية المفسرة.

3- نص كلام الإمام ابن باديس.

4-الشاهد من كلامه.

هنالك ثلاثة أمور أودّ التنبيه عليها قبل البداءة في المباحث:

الأول: أنّ بعض المسائل يتجاوزها أكثر من علم؛ تارة النحو والصرف، وتارة النحو والبلاغة، وتمحيض المسألة للنحو يعسر قليلا.

الثاني: أنّ المادّة العلمية التي عثرت عليها في الكتاب شحيحة جدا في مطالب، سخيّة جدا في مطالب أخرى، وهذا ما صعب عليّ عملية ترتيبها، وأثر على توازن المطالب، فالمادة المتاحة هي التي كانت تتحكم أحيانا في الترتيب، وعذري في ذلك أنّ تفسير الإمام لم يصلنا كاملا، ولو وصلنا كاملا لكان الأمر مختلفا.

الثالث: لن أمهّد لكل مبحث، فالطريقة التي أشرت إليها آنفا اتبعتها في جميع المباحث، فالطريقة هي هي، والذي يتغير هو الأمثلة والمسائل النحوية فقط، فمن هنا أودّ أن يستصحب القارئ هذا التمهيد بين يدي كل مبحث.

وهذا أوان الشروع في المبحث الأول على بركة الله...

المبحث الأول: توظيف المعارف والنكرات في استنباط المعاني

المطلب الأول: توظيف الضمير

1- الإظهار في موضع الإضمار:

في الحقيقة هذا المبحث هو ألصق بعلم البلاغة منه بعلم النحو، فالبلاغيون يتناولونه في باب "الخروج عن مقتضى الظاهر" من كتبهم⁽¹⁾، وموضعه في كتب النحو معلوم، ولقد سمحْتُ لنفسِي بإدراجه في هذا البحث النحوي لعدة أسباب:

منها: العلاقة الوطيدة بين علم النحو وعلم البلاغة؛ فالنحو يمثل جسد العربية، والبلاغة تمثل روحها، ولا يتمّ الوجود إلا بالجسد والروح معاً؛ والنحو بمثابة القشور، والبلاغة بمثابة اللبّاب، ولا يُحفظ اللبّاب إلا بقشوره، فمن هنا كان الفصل بين النحو والبلاغة صعباً جدّاً؛ لتشابك مباحثهما.

ومنها: أن الإظهار والإضمار هما من أوصاف الاسم، والاسم قسيم الفعل والحرف كما هو معلوم، وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف يعدّ من الدروس الأولى التي تُفتتح بها كتب النحو، ولا يكاد يخلو كتاب نحوٍ من هذا الكلام، إذًا فالإظهار والإضمار من هذه الحِثية هما مبحثان نحويان.

تعريف الضمير:

ينقسم الاسم باعتبار ظهوره وإضماره إلى قسمين: ظاهر ومضمّر.

فالمضمّر لغة: اسم مفعول من أضمّرتَه إذا أخفيتَه وسترتَه⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1996م، ج: 1، ص: 478.

(2) ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م، مادة (ضمّر).

واصطلاحاً: هو ما يُكنى به عن مُتكلمٍ أو مخاطبٍ أو غائبٍ.

والظاهر: ما يقابل الضمير لغة واصطلاحاً، والظهور هو الأصل في الأسماء⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• يقول تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) [سورة الإسراء: 25].

• قال ابن باديس رضي الله عنه: "وقد كان مقتضى الظاهر في تركيب الآية أن يقال: إن تكونوا صالحين فإنه كان لكم غفوراً؛ لأن المقام للإضمار، لكنه عدل عن الضمير إلى الظاهر فقل: (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) لينص على شرط المغفرة وهو الأوبة والرجوع، وعلم من ذلك أن الصالح عندما تقع منه الذنوب مطالب - كغيره - بالأوبة، لتحصيل المغفرة، لأن فرض الأوبة إلى الله من المعاصي عام على الجميع"⁽²⁾.

• أفاد الإظهار في موضع الإضمار ثلاث فوائد:

الأولى: أن شرط المغفرة هو التوبة.

الثانية: أن الصالح عرضة للذنوب، وذلك لا ينفي عنه وصف الصلاح.

الثالثة: أن الصالح إذا أذنب مطالب بالأوبة كغيره من الناس.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [سورة الفرقان: 20].

(1) ينظر: شرح ألفية ابن مالك، ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون 1400هـ - 1980م، ج: 1، ص: 88.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 237.

- قال ابن باديس رحمه الله: "وعدل عن مقتضى الظاهر وهو (وَكُنَّا بُصْرَاءَ) بالإضمار إلى (وكان ربك بصيرا) بالإظهار، للتنبيه على أن فتنه لعباده من مقتضى ربوبيته لهم، وحسن تديره فيهم" (1).
- أفاد الإظهار في موضع الإضمار أن فتنه الله لعباده داخله في ربوبيته القاهرة لهم وتديره الحكيم فيهم، ولولا قاعدة "الإظهار في موضع الإضمار" لما استطعنا أن نستفيد هذا المعنى الدقيق من هذه الآية وحدها. وتقدم أن هذا المبحث هو مبحث نحوي بلاغي، إذا فابن باديس يُعمل العربية في استنباط دقائق المعاني.

2- التأكيد بالضمير:

- قال الله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [سورة يوسف: 108].
- قال رضي الله عنه: "(أنا) تأكيد للضمير المستتر في (أدعو)، ونكتته الإعلان بنفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها" (2).
- لم يمر الإمام على لفظة (أنا) مرور الكرام، ولم يقل إنها تأكيد وكفى، بل استنبط بها معنى لطيفا، وهو أن الداعي إلى الله على بصيرة من شأنه أن يعمل وينشر دعوته في وضوح النهار ولا يختفي من أحد، فكأنه يقول لخصومه: هاأنا ذا أمامكم، وهاهي دعوتي وحجتي قدامكم، فليس لدي ما أخفيه. فبان أن الشجاعة من صفات الداعية... ونستطيع هنا أن نُعمل مفهوم المخالفة فنقول: إن الذي يعمل في الظلام ولا يجهر بدعوته=ليس شجاعا وليس على بصيرة من أمره، والله أعلم.

(1) المرجع السابق، ص: 397.

(2) المرجع نفسه، ص: 178.

المطلب الثاني: توظيف (ال) المعرفة في استنباط المعاني

ذو الأداة أو المحلّي ب(ال) من أقسام المعارف الستة، وتنقسم (أل) المعرفة إلى ثلاثة أقسام؛ وذلك أنها إما لتعريف العهد أو لتعريف الجنس أو للاستغراق.

فمثال التي لتعريف العهد قولك: اشتريت فرسا ثم بعت الفرس، أي: بعت الفرس المذكور.

ومثال التي لتعريف الجنس قولك: الرجل أفضل من المرأة؛ إذ لم ترد به رجلا بعينه ولا امرأة بعينها وإنما أردت أن هذا الجنس من حيث هو أفضل من هذا الجنس من حيث هو.

ومثال التي للاستغراق قولك: الإنسان ضعيف، أي: كل واحد من جنس الانسان ضعيف⁽¹⁾.

• يقول تعالى: (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) [سورة الفرقان: 29].

• قال ابن باديس رضي الله عنه: "و(ال) في الشيطان والإنسان للجنس، فيدخل في جنس الشيطان خليل الظالم الذي صده عن الذكر، وقرين خليله من الجن الذي سؤل له ذلك وأعاناه، وقرينه هو الذي زين له ودعاه إليه"⁽²⁾.

• فانظر كيف شقّق الإمام تلك المعاني اعتمادا على درس نحوي هو: مبحث (ال) التعريفية التي لاستغراق الجنس، وكأنه يقول لنا: إنّ كل شيطان كثير الخذلان لكل إنسان، فالحذر! الحذر!

(1) أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، الطبعة: الحادية عشرة، 1383هـ، ص: 112-113 (بتصرف).

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 403.

المطلب الثالث: الاستنباط باستعمال الاسم الموصول

تعريف الموصول:

هو لغة: اسم مفعول من وَصَلَ الشيء بغيره إذا جعله من تمامه⁽¹⁾، وفي الاصطلاح: ضربان؛ موصول حرفي وموصول اسمي، فالموصول الحرفي: كل حرف أُوِّل مع صلته بالمصدر ولم يحتاج إلى عائد... والموصول الاسمي: كل اسم افتقر إلى الوصل بجملة خبرية، أو ظرف، أو جار ومجرور تامين، أو وصف صريح، وإلى عائد أو خلفه⁽²⁾.

* المثال الأول:

• قال الله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [سورة يوسف: 108].

• قال ابن باديس رحمه الله: "(مَنْ) تفيد العموم لكل تابع، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة؛ لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متَّبِعُونَ"⁽³⁾.

• لم يُغفل الإمام لفظة (مَنْ) ولم يقف عندها وقوفا سطحيا، بل إنه استخرج بها معنيين أثرى بهما معنى الآية الكريمة:

المعنى الأول: إفادة العموم لكل تابع، فكل تابع بحق فهو لا شك متَّصف بأوصاف متبوعه؛ من الدعوة إلى الله على بصيرة، وغيرها من الصفات... وهذا المعنى أخذه الإمام من الاسم الموصول نفسه؛ لأن الموصولات المشتركة تُعَدُّ من ألفاظ العموم.

(1) ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م، مادة (وصل).

(2) ينظر: خالد بن عبد الله الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2000 م، ج: 1، ص: 148-149.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 178.

المعنى الثاني: من أراد من التابعين أن يكون أكثر اتباعاً من غيره فليكن أكثر دعوة منه، فبقوة الدعوة يقوى الاتباع وبضعفها يضعف، وهذا المعنى الثاني أخذه الإمام من صلة الموصول؛ لأن الموصول يفيد التعليل بصلته كما قال ابن باديس، فعلة الدعوة هي الاتباع.

الخلاصة أن الموصول مبحث نحوي والإمام -رحمة الله عليه- طوّعه لخدمة التفسير ولم يقف عند القشور بل غاص إلى بواطن الأمور.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) [سورة الإسراء: 57].

• قال الإمام عليه رحمة الله: "و(أَيُّهُمْ) اسم موصول مضاف إلى ضمير المبتغين، وهو بدل بعض من كل من الواو في يبتغون، و(أقرب) خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، والجملة صلة الموصول، ويحتمل أن يكون (أيهم) استفهاماً مبتدأ و(أقرب) خبر، وتقدير الكلام: ينظرون أيهم أقرب... أولئك الجن والملائكة الذين يدعوههم هؤلاء المشركون أرباباً قد أسلموا فصاروا من عباد الله المؤمنين، يطلبون أسباب الزلفى والقرب عند ربهم، ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده وصالح عمله، هذا على الإعراب الثاني.

وعلى الإعراب الأول: يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفى عند الله، فأحرى وأولى غيره" (1).

• إثراء الدرس التفسيري بتوظيف النحو والإعراب واضح في هذه الآية الكريمة، فقد ذكر ابن باديس أن (أَيُّهُمْ) لها إعرابان اثنان؛ فإما أن نعرّبها اسم موصول بدل بعض من كل من الواو في (يبتغون)، ويكون المعنى على هذا الإعراب هكذا: إذا طلب الذي هو أقرب أسباب الزلفى إلى الله؛ فإن غيره أحرى وأولى!، وبعبارة أخرى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي يزداد عملاً للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 291-292.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية

أما على الإعراب الثاني؛ فهي اسم استفهام، ويكون المعنى حينئذ هكذا: ألائك المدعوون ينظرون من هو الذي يكون أقرب مكانة باجتهاده وعمله الصالح، أي: يبتغون معرفة جواب أيهم أقرب عند الله.

فالمعنى كما تلاحظ يختلف باختلاف الإعرابين، وكان يكفي ابن باديس أن يذكر أن في الكلمة إعرابين ويمضي دون أن يذكر المعاني التي تترتب على الإعرابين، لكنه لم يفعل ذلك بل أثار التفسير بتوظيف علم النحو.

المطلب الرابع: استنباط المعاني بواسطة اسم الإشارة

تعريف اسم الإشارة:

اسم الإشارة من أقسام المعارف، وهو: "ما يدلُّ على مُعَيَّن بواسطة إشارة حِسِّيَّة باليد ونحوها إن كان المشار إليه حاضراً، أو إشارة معنويَّة إذا كان المشار إليه معنئ أو ذاتاً غير حاضرة"⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• قال تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [سورة الفرقان: 30].

• قال رضي الله عنه: "وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن، وهو قريب منهم في متناولهم"⁽²⁾.

(1) ينظر: مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الثامنة والعشرون، 1414هـ - 1993م، ج: 1، ص: 127.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 406-407.

- هجر القرآن جرم عظيم، ويزيد من فداحة هذا الجرم أن القرآن قريب منهم في تناول أيديهم، وهذا المعنى أخذه الإمام مستعيناً باسم الإشارة القريب (هذا)، وكان يكفيه أن يمرّ عليه مروراً أو أن يقول هو اسم إشارة وكفى، لكنه وظّفه وطوّعه لخدمة معاني القرآن.

* المثال الثاني:

- يقول تعالى: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [سورة الفرقان: 34].

- قال رضي الله عنه: "عرف المسند إليه بالإشارة في قوله (أولئك شر مكاناً) للتنبيه على أن المشار إليه وهو (الذين) المتقدم حقيق بما بعد اسم الإشارة من قوله (شر مكاناً) وأضل سبيلاً" (1).

- لم يمرّ ابن باديس على اسم الإشارة (أولئك) دون تنبيه، بل استفاد منه تأكيد المعنى وأحقّية المشار إليهم بالأوصاف المذكورة، فلا يُحشر إلى جهنم على وجهه إلا من كان مثلهم في تلك الأوصاف القبيحة، والله أعلم.

المطلب الخامس: الاستنباط باستعمال الإضافة

الإضافة باب نحوي شهير، وهي لغة: مطلق الإسناد⁽²⁾، واصطلاحاً: نسبة بين اسمين، يُسمّى الأول منهما مضافاً، ويعرب حسب موقعه في الجملة، ويسمى الثاني مضافاً إليه، ويكون مجروراً دائماً⁽³⁾. ومن خلال هذا التعريف يلوح لنا أن أغلب النحاة يتوجّهون في باب الإضافة إلى الألفاظ فحسب، ولا يعتنون بالمعاني التي تتولد من تلك الألفاظ إلا قليلاً.

(1) المصدر السابق، المجلد الأول، ص: 422.

(2) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، 1995م، مادة (ضيف).

(3) ينظر إميل بديع يعقوب، معجم الإعراب والإملاء، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1983م، ص: 77.

* المثال الأول:

- يقول تعالى لنبّيه -صلى الله عليه وسلم- (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [سورة النحل: 125].
- قال ابن باديس رحمه الله: "وأضافه إلى نفسه (أي السبيل) ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه" (1).
- الإمام رحمة الله عليه لم يستعمل الإضافة استعمالاً سطحياً، فلم يقل مثلاً: كلمة (سبيل) مضاف، و (ربك) مضاف إليه فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى المعنى الذي تومئ إليه الإضافة، وهو أنه لا أحد يوصل إلى رضوان الله إلا هو سبحانه وإلا شرائعه، ويفهم من أفراد لفظة (السبيل) أن سبيل الله واحدة غير متعددة، ويفهم من كلمة (ربك) -والرب هو الخالق اللطيف بعباده في جميع مراحل تكوينهم- أن الله رحيم بهم في هذه السبيل المدعو إليها كما كان رحيماً بهم في خلقه والله أعلم.

* المثال الثاني:

- قوله تعالى: (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) [سورة الإسراء: 20].
- قال عليه رحمة الله: "وأضاف الرب إلى ضمير المخاطب، وهو النبي □ لتشريفه بهذه الإضافة، ولما تشرف بهذه الإضافة الربانية، والرب جل جلاله قد مضى في وصفه في الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال = فمن شكر نعمة هذا الشرف أن يتخلق العبد وهو محمد □ بما هو من مقتضى وصف ربه، هذا من فوائد هذه الإضافة في هذا المقام" (2).

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 181.

(2) المرجع نفسه، المجلد الأول، ص: 211.

- فانظر كيف استنبط الإمام رحمه الله هذه المعاني الغزيرة وغيرها مما لم ننقله خشية الإطالة=اعتمادا على معنى التشريف الذي أفادته إضافة كلمة (رب) إلى النبي □ (كاف الخطاب). ويمكن أن نصوغ كلام الإمام صياغة سهلة واضحة هكذا: حاول يا محمد أن تتصف بأوصافي، فأني ما ذكرتها لك إلا لتتصف بها.

ولما كان النبي □ هو قدوتنا فنحن أيضا مطالبون بالافتداء به في أخلاقه الحميدة، وهنا نستطيع أن نفتح مجلدا ضخما في أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، كل هذا بواسطة مبحث لفظي هو مبحث الإضافة، حظّ النحاة منه الإعراب والوقوف على الظواهر، أما ابن باديس فكان حظه منه وافرا بل أكثر من وافر.

* المثال الثالث:

- قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [سورة الإسراء: 24].

- قال ابن باديس رحمه الله: "وأضيف الجناح إلى الذل -وهو الهُون واللين- إضافة موصوف إلى صفة، أي: اخفض لهما جناحك الذليل، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتها، حتى يشعر بأنهما مخدومان باستحقاق لا متفضل عليهما بالإحسان"⁽¹⁾.

- كلام الإمام واضح غاية الوضوح، وليس لدي ما أضيفه عليه، وإنما أتيت بهذه الآية لأنواع الأمثلة فقط، ففي المثال السابق إضافة التشريف وههنا إضافة الموصوف إلى الصفة، وهو ما يقتصر عليه النحويون عادة في مثل هذا المقام، غير أن ابن باديس استنبط بالإضافة معنى لطيفا ونوعا من البرّ طريفا وهو مباشرة البرّ بتدليل وانكسار حتى يشعر الوالدان بأن الابن يبرهما عن استحقاق لا عن تفضل.

(1) المرجع السابق، المجلد الأول، ص: 228.

* المثال الرابع:

• يقول تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) [سورة الإسراء: 31].

• قال رضي الله عنه: "وبين تعالى فظاعة هذا القتل بقوله (أَوْلَادَكُمْ) بإضافة الأولاد إليهم، فإن الأولاد أفلاذ الأكباد، وقطعة من لحم المرء ودمه، ونسخة من ذاته، فمحببتهم فطرة، والعطف التام عليهم خلقه، فكيف يكون قبح وفضاعة فعل من بلغ بهم القتل، وأي خير يُرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفضع الجنايات على ألصق الناس به؟!"⁽¹⁾.

• الآية الكريمة لم تقل (ولا تقتلوا الأولاد) بالقطع عن الإضافة، وإنما قالت (ولا تقتلوا أولادكم) بالإضافة، ولا شك أن بين التعبيرين فرقا كبيرا، وقد تفتن له الإمام رحمه الله واستخرج منه المعاني التي نقلتها آنفا، ويمكن اختصارها في هذين النقطتين:

1- جاءت الآية بالإضافة لتبين للمخاطبين فظاعة ذلك الفعل وشناعته.

2- جاءت بالإضافة لتلين قلوبهم القاسية ولتحملهم على ترك ذلك الفعل القبيح، والله أعلم.

(1) المرجع السابق، المجلد الأول، ص: 253.

المطلب السادس: استنباط المعاني عن طريق التنكير

تعريف النكرة:

النكرة لغة: اسم مصدر من الفعل (نَكَرَ) ثم نُقِلَ وسمي به الاسم المنكّر⁽¹⁾.

واصطلاحاً: اسم دل على غير معين كرجل وكتاب ومدينة⁽²⁾.

* المثال الأول:

- قال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [سورة الإسراء: 23].

- قال رحمه الله: "وتقدير نظم الآية هكذا: وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، وبأن تحسنوا للوالدين إحساناً. فحذف أن تحسنوا لوجود ما يدل عليه وهو إحساناً، وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال"⁽³⁾.

- استفاد الإمام من التنكير في قوله (إحساناً) أنه إحسان عظيم في القول والفعل والحال، والتنكير من مباحث علم النحو، إذا فالإمام يوظف النحو في إثراء الدرس التفسيري.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [سورة الإسراء: 82].

(1) ينظر لسان العرب، مادة (نكر)

(2) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 1، ص: 26.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 223.

- قال رحمه الله: "وتنكير (شفاء) و(رحمة) للتعظيم" ⁽¹⁾.
- الملاحظ أن الإمام لم يقل إن كلمتي (شفاء) و(رحمة) نكرتان فقط، بل فهم من التنكير أن الشفاء والرحمة عظيمان!

* المثال الثالث:

- يقول تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) [سورة الفرقان: 27].
- قال الإمام رضي الله عنه: "والتنكير في قوله (سبيلا) للإفراد، أي: سبيلاً واحداً لا تعدد فيه بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه المتعددة المتشعبة" ⁽²⁾.
- نعم هنالك أدلة كثيرة من القرآن والسنة تنصّ صراحة على أن سبيل الله واحدة وأن سبل الشيطان متعدد، لكن إذا تناولنا هذه الآية وحدها -بقطع النظر عن الأدلة الأخرى- فإننا لن نستطيع أن نفهم منها وحدة سبيل الله إلا بالطريقة التي سلكها ابن باديس، وهي تذوق التنكير في (سبيلا) والله أعلم.

(1) المرجع السابق، ص: 328.

(2) المرجع نفسه، ص: 402-403.

المبحث الثاني: توظيف أدوات المعاني في الاستنباط

المطلب الأول: توظيف الأحرف المشبهة بالفعل

الأحرفُ المشبَّهةُ بالفعل ستَّة، هي: "إِنَّ وَأَنَّ وَكَأَنَّ وَلَكِنَّ وَلَيْتَ وَلَعَلَّ"، وحكمُها أنها تدخلُ على المبتدأ والخبر فتتصبُّ الأولُ ويُسمَّى اسمَها، وترفعُ الآخرُ ويُسمَّى خبرَها، نحو "إن الله رحيمٌ" و"كأنَّ العلمَ نورٌ".

وسميت مشبهة بالفعل لفتح أواخرها كالماضي، ووجود معنى الفعل في كل واحدة منها؛ فإنَّ وَأَنَّ للتأكيد، وكأنَّ للتشبيه، ولكنَّ للاستدراك، وليت للتمني، ولعلَّ للترجي، وهي من معاني الأفعال⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• يقول تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) [سورة الإسراء: 25].

• قال رضي الله عنه: "وقد أكد الكلام ب (أَنَّ) لتقوية الرجاء في المغفرة... وإنما احتيج إلى هذا التأكيد في تقوية رجاء المذنب في المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال، لأن العبد مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه في المغفرة:

أحدهما: كثرة ذنوبه التي يشاهدها فتحجبها كثرتها عن رؤية مغفرة الله تعالى، التي هي أكبر وأكثر.

والآخر: رؤيته لطبعه البشري، وطبع بني آدم من المنع عند كثرة السؤال... فيقوده القياس - وهو من طباع البشر أيضاً - الفاسد إلى ترك الرجوع والسؤال من الرب الكريم

(1) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 2، ص: 298.

العظيم النوال، فهذان الأمران يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر في حمأة المعصية وذلك هو الهلاك المبين، فكان حاله مقتضياً لأن يؤكد حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات⁽¹⁾.

- الإنسان مذنب مقصّر بطبيعته، ولما علم الله كثرة ذنوبه دعاه إلى كثرة التوبة والرجوع إليه، غير أن كثرة المعاصي قد تُقعد العبد وتضعف رجاءه في مغفرة الله؛ فمن هنا ذكر أنه غفور، أي: كثير المغفرة؛ ليتوب إليه، ولم يكتف بذلك بل أكد الكلام ب(إنّ)، حتى لا يقنط الإنسان من كثرة ذنوبه ويوقن بأن مغفرة الله أكبر، وحتى يوقن أيضاً أنّ الخالق الكريم ليس كالمخلوقات الضعيفة التي تمتنع إذا سئلت كثيراً، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً.

أرأيت إلى هذه الوقفة الطويلة التي وقفها الإمام عند لفظة (إنّ) المؤكدة؟!، وأرأيت كيف استخرج هذه المعاني الجميلة اتكاءً عليها؟!، وأرأيت كيف طبق قواعد النحو في تفسير القرآن الكريم؟!، فهذا ما نودّ أن نثبته من خلال هذه الأوراق المتواضعة.

* المثل الثاني:

- قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) [سورة الحج: 38].

- قال الإمام رحمه الله: "عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف وأعدائهم في كثرة وقوة - كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعيد الهجرة - تشكّ النفوس في سلامتهم من كيد العدو، فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً ب(إنّ)... وأُكِّدَت (الكلام الآن عن الجملة الثانية) ب(إنّ) لأن الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغضون؟ فأجيب بالتأكيد"⁽²⁾.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 237.

(2) المرجع نفسه، ص: 358-356.

- تكررت (إنّ) مرتين في هذه الآية الكريمة، وفي المرتين كليهما ذكر الإمام علة تأكيد الكلام بها؛ ففي المرة الأولى أكد الكلام بها لنفي الشك من نفوس المؤمنين؛ لأنهم كانوا في حالة من الضعف والقلّة قد تركهم يشكون في نصر الله لهم ودفاعه عنهم؛ فمن هنا جاء الكلام مؤكداً بها.

وأكد الكلام بها في المرة الثانية حتى يتيقن المؤمنون أن الأئمة المدفوعين هم كفرة خوانون وأنهم ليسوا محلاً للرحمة والشفقة، ولا يخفى أن هذا التأكيد يربط على قلوب المؤمنين ويجعلهم على بينة من أمرهم إذا التقى الصفان في الحرب، والله أعلم... المهم أن الإمام استنبط هذه المعاني اللطيفة اعتماداً على (إنّ).

* المثل الثالث:

- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [سورة المؤمنون: 51].

- قال رحمه الله: "ولما كان المخطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تتشرف نفسه لتعين ثمرة ذلك؛ جاء الخبر مؤكداً بـ(إنّ) في (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، وعلم الله مستلزم لجزائه"⁽¹⁾.

- ليس هنالك شيء زائد في القرآن الكريم، فكل كلمة لها معانيها ودلالاتها، ومن ذلك لفظة (إنّ) التي أكد بها قوله (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، فقد يظن من لا دراية له بالعربية أنها لا تفيد معنى زائداً فيمكن الاستغناء عنها، غير أن الإمام استنبط بها ههنا معنى شريفاً، وهو أن المأمور بأكل الحلال والعمل الطيب تتشوف نفسه لمعرفة جزاء هذا المأمور به وثمرته، فلما جاء الجزاء مؤكداً بـ(إنّ) علمنا أنه جزاء عظيم، وفهمنا أيضاً أن المخالف له عقاب عظيم، والله أعلم، وتقدم في كلام الإمام أن الجزاء من لوازم علم الله بما يعمل به الناس.

(1) المرجع السابق، ص: 364.

ومما له صلة بموضوعنا ومما لا يجدر بنا أن نغفله ونحن في باب الأحرف المشبهة بالفعل = الكلام عن استنباط المعاني بواسطة لام الابتداء أو ما يعرف باللام المزحلقة؛ فعلماء النحو دائماً يذكرونها في هذا الباب، لكنهم لا يتكلمون إلا عن أحكامها اللفظية فحسب دون الإشارة إلى معناها، ولقد ظفرت بمثال عند ابن باديس استخرج فيه عن طريق هذه اللام معنى دقيقاً، وهذا ما نوّد أن نثبته من خلال هذا البحث، لكن قبل أن أذكره يحسن بي أن أنقل لكم نصاً لعالم من علماء النحو - هو الشيخ خالد الأزهرى - يتناول فيه تلك اللام من جانبها اللفظي.

قال الإمام رحمه الله: "وتدخل لام الابتداء بعد (إنّ) المكسورة، نحو: إن زيدا لقائم، وتسمى اللام المزحلقة والمزحلفة، بالقاف والفاء، وبنو تميم يقولون: زحلوفة، بالقاف، وأهل العالية: زحلوفة، بالفاء، سميت بذلك لأن أصل إنّ زيدا لقائم: لأن زيدا قائم، فكروها افتتاح الكلام بحرفين مؤكدين، فزحلقوا اللام دون (إنّ) لئلا يتقدم معمولها عليها، وإنما لم ندع أن الأصل إنّ لزيداً قائم لئلا يحول ما له صدر الكلام بين العامل والمعمول، قاله في المغني، وإنما دخلت اللام بعد (إنّ) لأنها شبيهة بالقسم في التأكيد، قاله سيويه.

وسميت لام الابتداء؛ لأنها لا تدخل على المبتدأ، وتدخل على غيره بعد (إنّ) المكسورة على أربعة أشياء: أحدها الخبر، وذلك بثلاثة شروط: كونه مؤخراً عن الاسم، وكونه مثبتاً، وكونه غير ماض " (1).

• يقول تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [سورة الفرقان: 20].

• قال الإمام رحمه الله: "مفعول أرسلنا محذوف تقديره (رجالاً)، وعليه عاد الضمير في (أنهم)، وهو صاحب الحال، والحال هي الجملة التي بعد إلا، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى، والاستثناء مفرغ من الأحوال، وتقدير الكلام: وما أرسلنا قبلك

(1) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 1، ص: 311.

رجالاً من المرسلين إلّا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، أي: ما أرسلناهم في حالة من الأحوال إلّا في هذه الحال. وإن اللام والحصر بما والأكل هذه لتأكيد المعنى الذي سيق إليه الكلام، وهو إثبات أن رسول البشر لا يكون إلا بشراً⁽¹⁾.

• صرح ابن باديس في النص السابق أن الغرض من اللام في قوله تعالى (لَيَأْكُلُونَ) هو تأكيد المعنى الذي جاءت من أجله الآية الكريمة، وهو إثبات أن رسول البشر لا ينبغي أن يكون إلا بشراً خلافاً لمن أنكر ذلك.

ولست هنا لأذكر معنى الآية فقد بينها ابن باديس أيّما بيان، وإنما مرادي فقط هو الربط بين النحو والتفسير عند ابن باديس، وهو جليّ في هذا المثال فقد وظّف درساً نحويّاً (اللام المزلحقة) في استنباط معنى قرآني.

المطلب الثاني: استنباط المعاني عن طريق الاستفهام

الاستفهام مبحث يتجاذبه علم النحو وعلم البلاغة، وهما علمان يعسر جدا الفصل بينهما لما بينهما من التشابك والترابط، فهما للعربية كالروح والجسد للإنسان، وهذا ما تركني أدرج هذا الفصل في البحث.

تعريف الاستفهام:

هو لغة: طلب الفهم⁽²⁾.

واصطلاحاً: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بكلمات موضوعة، وهي: الهمزة وأم وهل وما ومن وأيّ وكم وكيف وأين وأيّ ومتى وأيّان بفتح الهمزة وبكسرها⁽³⁾.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 389.

(2) ينظر لسان العرب، مادة (فهم)

(3) ينظر: السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ - 1987م، ص: 308.

• قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [سورة الفرقان: 20].

• قال ابن باديس رحمه الله: "الاستفهام في (أتصبرون) بمعنى الأمر أي اصبروا، وخرج الأمر في صورة الاستفهام تنبيهاً على قلة الصبر في الوجود، فهو من الأمر المعلوم الذي يسأل عنه هل يوجد؛ وفي ذلك بعث للهمم على تحصيله والتمسك به" ⁽¹⁾.

• استخرج ابن باديس عن طريق الاستفهام معنى جميلاً، وهو أنّ (أتصبرون) معناها: (اصبروا)، غير أنه عدل عن الأمر إلى الاستفهام لقلة وجود الصبر، فالآية الكريمة في الظاهر تسأل عن الصبر، لكنها في الحقيقة تحثّ الناس على التحلي به في رفق ولطف ولين.

وتقدم أنّ هذا المبحث يتجاوزه النحو والبلاغة، غير أن البلاغيين لا يتوصلون إلى أغراضهم المعنوية إلا عن طريق مباحث الألفاظ التي يوفرها لهم علم النحو، وهذا ما تركني أدرج هذا المبحث هنا... وقبل وبعد فابن باديس أثرى التفسير بتوظيف الاستفهام.

المطلب الثالث: الاستنباط بتوظيف (الاستثناء)

الاستثناء في اللغة: مطلق الإخراج ⁽²⁾.

واصطلاحاً: هو المخرج تحقيقاً أو تقديراً من مذكور أو متروك بـ(إلا) أو ما في معناها بشرط الفائدة ⁽³⁾.

• قال تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [سورة الفرقان: 70].

(1) عبد الحميد ابن باديس، محالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1388هـ-1968م، ج: 1، ص: 397.

(2) ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة (ثني)

(3) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 1، ص: 537.

• قال ابن باديس رحمه الله: "(إِلَّا مَنْ تَابَ) استثناء من (يفعل) استثناء متصل؛ لأن الذي يتوب من جملة من فعل" (1).

• فهم الإمام -عليه رحمة الله- أن التائب يكون من جملة من يفعل الآثام المتقدمة (الشرك وقتل النفس والزنى)، وعَلَّل ذلك بأن الاستثناء متصل، والاستثناء المتصل في عرف النحاة: أن يكون المستثنى من جنس ما قبله (2).

المطلب الرابع: الاستنباط بتوظيف حروف الجر ومتعلقاتها

1- توظيف حروف الجر:

باب حروف الجر من الأبواب النحوية المعروفة، ولا يعني النحاة من هذا الباب إلا حصر هذه الحروف وتعدادها وإلا أن الاسم الذي يأتي بعدها يكون مجروراً، وقد يشيرون إلى معانيها من طرف خفي. وحروف الجرّ عشرون حرفاً، وهي: الباء ومن وإلى وعن وعلى وفي والكاف واللام وواو القسم وتاؤه ومُذْ ومُنْذُ ورُبُّ وحتى وخلا وعدا وحاشا وكى ومتى في لغة هُذَيْل وَلَعَلَّ في لغة عُقَيْل (3).

أ- توظيف (على) (4):

• قال الله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [سورة يوسف: 108].

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 476.

(2) ينظر: شرح ألفية ابن مالك، ج: 2، ص: 212.

(3) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 1، ص: 630.

(4) (على) لها تسعة معان، منها الاستعلاء، انظر جمال الدين بن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن مبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر-بيروت، الطبعة السادسة 1985م، ص: 190.

• قال الإمام رحمه الله " (على بصيرة) يتعلق بأدعو، واختيرت (على) لتدل على تمام التمكن"⁽¹⁾.

• فكلمات الإمام على اختصارها تفيد أن الداعية إلى الله لا يكفيه أن يكون صاحب حجة فقط، بل ينبغي عليه أن يكون متمكنا من الحجة والبرهان، وهذا ما أفادته (على) الاستعلائية في الآية الكريمة، وبعبارة أخرى: على الداعية أن يتمكن من حجته وعلمه كما يتمكن الراكب من مطيته، وهذا المعنى اللطيف توصلنا إليه عن طريق حرف الجر.

ب- توظيف (من)⁽²⁾:

* مثال (من) التبعية:

• قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [سورة الشورى: 20].

• قال الإمام رضي الله عنه: "والتقييد بـ(من) في قوله تعالى (منها) على أن ما يناله -سواء كان كل ما أراد أو بعضه- ما هو إلا بعض من الدنيا"⁽³⁾.

• لم يمرر ابن باديس على (من) مرور الكرام، ولم يفته المعنى اللطيف الذي تضيفه للآية الكريمة، فمن حيزت له الدنيا بخذافيرها فكأنه لم يحصل شيئا مقارنة بالآخرة ونعيمها؛ لأن الدنيا بجميع متعتها وملذاتها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فكيف بمن حصل بعضا وشيئا حقيرا من هذه الدنيا؟!

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 178.

(2) (من) تأتي على خمسة عشر معنى، منها التبعية، ومنها التعليل، انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص: 419.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 200.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)) [سورة هود: 15-16].

* مثال (من) التعليلية:

• قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [سورة الإسراء: 24].

• قال الإمام رحمه الله: "و(من) في قوله تعالى: (مِنَ الرَّحْمَةِ) للتعليل متعلقة ب(اخفض)، فتفيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئاً عن الرحمة الثابتة في النفس، لا عن مجرد استعمال ظاهر، كما كانا يكتفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادق، فيكون هذا مفيداً ومؤكداً لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الإحسان إليهما الظاهر والباطن ليتم البرور"⁽¹⁾.

• فهم الإمام عليه رحمة الله أن كمال الإحسان إلى الوالدين لا يكون إلا إذا تطابق الظاهر والباطن، وإلا إذا كان الإحسان صادقاً ناشئاً عن رحمة وحب، أما تكلف الإحسان فهو برّ مدخول حسب كلام الإمام؛ لأن الوالدين كانا يعطفان على ولدهما عن رحمة وشفقة لا عن تكلف، وأقل درجات الإنصاف والبرور أن يُعاملاً بالمثل... وهذه المعاني استنبطها الإمام عن طريق (من) التعليلية.

ت- توظيف (اللام)⁽²⁾:

• قال الله تعالى: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) [سورة الإسراء: 19].

(1) المرجع السابق، ص: 228.

(2) للام الجارة اثنان وعشرون معنى، انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ص: 275.

- قال ابن باديس في معرض الكلام عن شروط السعي المشكور: "...الشرط الأول أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا، كما يفيد فعل الإرادة في (ومن أراد) ولام الأجل في (وسعى لها)"⁽¹⁾.
- فانظر كيف فهم من (اللام) أن السعي لا يكون مشكورا إلا إذا أريد به وجه الله تعالى، وطريقته في استخراج هذا المعنى أن اللام للتعليل، فيكون معنى الآية هكذا: ومن أراد الآخرة وسعى من أجلها، أي: أن العامل يسعى وهو محتسب الأجر عند الله، فأفهمت اللام القصد والنية والإخلاص، والله أعلم.

ث- توظيف (الباء):

- الباء الجارّة تفيد أربعة عشر معنى، أحدها الإلصاق الذي سنتحدث عنه هنا، وهو معنى لا يفارق الباء في جميع حالاتها، وقد تنضاف إليه معان أخرى زائدة عليه؛ ولهذا اقتصر عليه سيبويه في "الكتاب". ومثاله: أمسكت بزيد، أي: ألصقت يدك بشيء من جسمه⁽²⁾.
- يقول تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [سورة الإسراء: 23].
 - قال ابن باديس رحمه الله: "وتقول أحسنت إليه، وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ، لتضمن أحسنت معنى لطف، ولما في الباء من معنى اللصوق"⁽³⁾.
 - أشار الإمام إلى المعنى الذي أفادته الباء في الآية، وهو الإلصاق أو اللصوق كما عبر هو عنه، ثم ترك القارئ الفطن يستنبط المعاني الغزيرة من هذه الإشارة اليسيرة.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، ص: 202.

(2) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص: 137.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 223.

وفي الآية الكريمة حذف، وتقدير نظم الآية هكذا: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا. ومعنى الآية إذا راعينا الإلصاق الذي تفيد به الباء يكون على هذه الطريقة: اجعلوا إحسانكم بهما ملاصقا لهما في جميع الحالات؛ في منشطكم وفي مكسلكم، في رضاكم وفي غضبكم، وسواء أكانا محسنين إليكم أم مسيئين؛ لأن فضل الوالدين عظيم، ولأن إحسانهما سابق، والله أعلم.

ويجوزنا قول ابن باديس: "وتقول أحسنت إليه وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ، لتضمن أحسنت معنى لطفت"⁽¹⁾ إلى الكلام عن باب آخر من أبواب النحو يسمى التضمنين، وهو: استعمال الكلمة في معناها الأصلي مزيدا عليه معنى آخر، وفائدته أن يدل بكلمة واحدة على معنى كلمتين⁽²⁾، تماما كما في الآية التي نحن بصددتها، فإنَّ (أحسن به) أبغ في المعنى من (أحسن إليه)؛ لأن أحسن إليه ليس فيه إلا الإحسان الذي هو ضد الإساءة فقط، أما أحسن به ففيه المعنى الأول، وفيه أيضا زيادة عليه معنى لَطْفَ، ولطف غير أحسن، قال الجوهري في الصحاح: "لَطَفَ الشيءَ يَلْطُفُ لَطَافَةً، أي صَغُرَ، فهو لَطِيفٌ. وَاللُّطْفُ فِي الْعَمَلِ: الرِّفْقُ فِيهِ"⁽³⁾، فينبغي على البارِّ إذا أن يذهب في إحسانه إلى والديه مذهب لطيفة.

الحاصل أن الفعل (أحسن) في الآية يحمل بداخله معنى (لطف)، فصار كأنه كلمتان لا كلمة واحدة، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم، فإن كلماته في قوّة الجمل، دون أن ننسى أنّ هذه المعاني اللطيفة توصلنا إليها بواسطة الباء الجارّة، وحروف الجرّ من صميم علم النحو العربي، إذاً فنحن لم نخرج عن دائرة بحثنا، وهو توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري.

(1) المرجع السابق.

(2) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 2، ص: 343.

(3) الجوهري، الصحاح في اللغة، موقع الوراق (غير موافق للمطبوع)، ج: 2، ص: 141.

ج- توظيف (الكاف) ⁽¹⁾:

• قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [سورة الإسراء: 24].

• قال الإمام ابن باديس رحمه الله: "والكاف في قوله تعالى: (كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) للتعليل أي رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على إحسانهما إلي في حالة الصغر حالة الضعف والافتقار، وفي هذا اعتراف بالجميل، وإعلان لسابق إحسانهما العظيم، وتوسل إلى الله تعالى في قبول دعائه لهما بما قدما من عمل؛ لأنه وعد أنه يجزي العاملين، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة" ⁽²⁾.

• أفادت الكاف التعليلية عدّة معان، يمكن أن نعيد صياغتها في هذه النقاط الثلاثة:

- إنجاب الأولاد وتربيته من أعظم الأعمال الصالحة، فالله أمرنا أن ندعو لوالدينا بالرحمة، ولم يذكر من أعمالهم في هذا المقام إلا تربيته إيانا وقيامهم بحقوقنا.
- الوفاء والاعتراف بالجميل خلقان كريمان نوه الله بهما في هذه الآية، والقرآن لا يذكر إلا أخلاق الكاملين والواصلين.

- يؤخذ من الآية جواز دعاء الله بالأعمال الصالحة وأنواع الطاعات.

2- توظيف متعلق الجار والمجرور:

ومما لا ينبغي علينا إغفاله ونحن نتحدث عن حروف الجر = الحديث عن استنباط المعاني بواسطة مُتَعَلِّقِ الجار والمجرور؛ إذ لا بدّ لكل جار ومجرور من أن يتعلق بفعل أو بما في معنى الفعل كما هو مقرر عند المعربين، ولقد ظفرت بمثال في تفسير ابن باديس وظف فيه هذه القاعدة في إثراء معنى آية.

(1) للكاف أربعة معان، منها التعليل، انظر: خالد الأزهرى، التصريح على التوضيح، ج: 1، ص: 654.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 229.

- قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [سورة الفرقان: 62].
- قال رحمه الله: "والجار في (لمن أراد) يتعلق بـ (جعل)، وكان الجعل لهما لأنهما المستفيدان منه"⁽¹⁾.
- استفاد الإمام من الآية الكريمة معنى زائدا من خلال تعليق الجار والمجرور، وهو: أن المستفيدين حقيقية من تعاقب الليل والنهار هم المتذكرون والشاكرون.

المطلب الخامس: الاستنباط بتوظيف حروف المعاني

أ- توظيف حروف النداء:

باب النداء من أشهر أبواب علم النحو، ولن أبالغ إذا قلت إنه لم يخل منه كتاب من كتب النحو على اختلاف مستوياتها.

ويعرّف النداء لغة بأنه: المطلوب إقباله⁽²⁾.

واصطلاحاً: الدعاء بأحرف مخصوصة⁽³⁾.

غير أن كتب النحو ليس من شأنها أن تتحدث عن المعاني التي تتولّد بسبب النداء، اللهم إلا معاني واضحة كأن يقولوا: (الهمزة) للمنادى القريب، و(أيا) و(هيا) للمنادى البعيد، و(يا) تصلح لهما وهكذا⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص: 432.

(2) انظر لسان العرب لابن منظور، حرف النون، ج: 14، مادة (ندي)

(3) انظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 2، ص: 205.

(4) المرجع نفسه، ص: 106.

* المثال الأول:

• يقول تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) [سورة المائدة: 15].

• قال الإمام ابن باديس في تفسير الآية: "وفي ندائهم بيا أهل الكتاب تشريف وتعظيم لهم بإضافتهم للكتب، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- لأنه جاء بكتاب وهم أهل كتاب، واحتجاج عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الإيمان بالكتاب الذي جاء به؛ لأنه من جنسه" (1).

• في هذه الفقرة التي نقلتها من كلام ابن باديس يتضح لنا كيف وظّف النداء -وهو من صميم علم النحو- في إثراء التفسير وفي استخراج جميع تلك المعاني الشريفة التي يمكن اختصارها في هاتين النقطتين:

- أفاد النداء تعظيم أهل الكتاب وتشريفهم والتفخيم من شأنهم.

- في ندائهم ب: (يا أهل الكتاب) عتاب رقيق لهم، وكأنه يقول لهم: اقبلوا ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- فأنتم أهل كتاب، وهو أيضا صاحب كتاب جاء به من عند الله، وبعبارة أخرى: كما آمنتم بكتابكم آمنوا بكتابه؛ فكلٌّ من عند الله.

ثم إن ابن باديس لم يقف عند هذه المعاني، بل زاد عليها أمورا أخرى، فمما استنبطه أيضا عن طريق النداء:

- أن القرآن الكريم يعلمنا أن ننادي الناس بأحب الأسماء إليهم في مقام الدعوة؛ لأن ذلك يستميلهم إلى الداعي ويلفتهم إليه ويفتح قلوبهم وأسماعهم لكلامه (2)، كل هذه المعاني مأخوذة من حرف النداء والمنادى.

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: 1، ص: 164.

(2) المرجع نفسه، ص 165 بتصرف.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [سورة المؤمنون: 51].

• قال رحمه الله: "ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل، ولأن كل واحد منهم أوحى الله إليه بهذا النداء والأمر في زمانه كان النداء والأمر للجمع"⁽¹⁾.

• استفاد الإمام في هذه الآية عن طريق النداء أمرين:

الأول: أن المأمور به (وهو الأكل من الطيبات والعمل الصالح) مما يجب على الرسل أن يبلغوه لأقوامهم، فهو أمر لا يخصهم وحدهم، بل يخصهم هم ومن أرسلوا إليهم، فلفظة (الرسل) تشعر بالتكليف والوجوب ووجود رسالة ينبغي أن تُبلّغ.

الثاني: أن هذا المأمور به من الأمور التي أوحى الله بها لكل الرسل، وهذا استفاد من كلمة (الرسل) التي جاءت بصيغة الجمع.

فانظر كيف يستخرج الإمام المعاني عن طريق مباحث نحوية ربما مر عليها غيره مرور الكرام أو تعاملوا معها تعاملًا سطحيًا لفظيًا.

* المثال الثالث:

• قال تعالى: (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) [سورة الفرقان: 28].

• قال قدس الله سره: "والألف في (يا ويلتي) منقلبة عن ياء المتكلم، والأصل يا ويلتي، نادى ويلته أي هلكته لتحضر في ذلك الوقت؛ لأنه وقتها، وليس نداؤها رغبة في حضورها، فاهلاك لا يرغب فيه، وإنما نادى الهلاك ليحضر لما حصل له من اليأس

(1) المرجع السابق، ص: 364.

والقنوط من أسباب النجاة، فلم يبق له إلاّ الهلاك، كما يقول العليل للطبيب وقد
أيس من معالجة جرح بيده مثلاً: اقطع، فهذا وقت القطع"⁽¹⁾.

في هذا المثال أيضاً يشقّق الإمام المعاني معتمداً على مباحث لفظية نحوية، فيردّ أولاً
ألف (ويلتى) إلى أصلها اليائي، ثم يذكر سبب هذا النداء اليائس، وهو أن هذا المنادي قد
ذهب به اليأس من النجاة كل مذهب حتى صار ينادي الهلاك والموت ويؤثرهما على الحياة!

(1) المرجع السابق: ص: 403.

المبحث الثالث: توظيف التوابع في الاستنباط

المطلب الأول: الاستنباط بتوظيف النعت

النعت ويسمى الصفة أيضا هو: ما يذكر بعد اسم ليعين بعض أحواله أو أحوال ما يتعلق به، فالأول نحو: جاء التلميذ المجتهد، والثاني نحو: جاء الرجل المجتهد غلامه، فالصفة في المثال الأول بينت حال الموصوف نفسه، وفي المثال الثاني لم تبين حال الموصوف، وهو الرجل، وإنما بينت ما يتعلق به، وهو الغلام.

وفائدة النعت التفرقة بين المشتركين في الاسم، ثم إن كان الموصوف معرفة ففائدة النعت التوضيح، وإن كان نكرة ففائدته التخصيص، فإن قلت: جاء علي المجتهد، فقد أوضحت من هو الجائي من بين المشتركين في هذا الاسم، وإن قلت: صاحب رجلا عاقلا، فقد خصصت هذا الرجل من بين المشاركين له في صفة الرجولية⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) [سورة الإسراء: 79].

• قال رحمه الله: "و(محمودا) صفة لمقام، ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام؛ فجعل الحمد للمقام توسعاً، تنبيهاً على عظم الحمد وكثرته؛ فإنه فاض على صاحب المقام حتى غمر مقامه"⁽²⁾.

• كان يَسْعُ الإمام أن يعرب (محمودا) نعتا ل(مقاما) ويمضي، كما يفعل كثير من المعربين، لكنه رحمه الله استخرج من الإعراب معنا صوفيا غاية في الرقة ونبهنا بلطف إلى أهمية صلاة القيام... فالذي يُحمد حقيقة هو القائم في المقام لا المقام نفسه، غير أنه لما أكثر

(1) ينظر: شرح ألفية ابن مالك، ج: 3، ص: 191.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 315.

الحمد من القائم جاز أن يوصف المقام أيضا بالحمد، فالحمد فاض حتى غمر القائم وغمر المقام وغمرنا نحن أيضا.

وفي كلام ابن باديس زيادة حثّ على صلاة التهجد، ففيها من البركات والفتوحات والرحمات ما ليس في غيرها من الصلوات، وبالجملة؛ من كان يبحث عن الفيض الرباني فليطرق باب القيام، والله أعلم.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) [سورة الفلق: 4].
- قال رحمه الله: "و(النفاثات): صفة إما للنفوس فتشمل الرجال والنساء، وتكون الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلاً كان أو امرأة، وإما للنساء وخصصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر، وهن به أشهر"⁽¹⁾.
- الإمام هنا يتوسع في معنى الآية اعتماداً على الأعراب المحتملة، فإن (النفاثات) يجوز أن تُنعت بها جميع النفوس، وتكون المزية على هذا الوجه هي العموم؛ لأن متعاطي النفث قد يكون رجلاً وقد يكون امرأة... ويجوز أيضاً أن تكون نعناً للنساء، وتكون الفائدة على هذا الوجه أن فعل النفث يكثر من النساء؛ فمن هنا خصصن به دون غيرهنّ، والآية تحتمل جميع ذلك بلا تعارض.

المطلب الثاني: الاستنباط بتوظيف حروف العطف

تعريف العطف:

العطف لغة: هو الميل⁽²⁾.

واصطلاحاً: ينقسم إلى قسمين؛ عطف بيان وعطف نسق:

(1) المرجع السابق، المجلد الثاني، ص: 115.

(2) ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة (عطف)

فأما عطف البيان: فهو التابع الجامد الموضح لمتبوعه في المعارف المخصص له في النكرات.

وأما عطف النسق وهو المقصود هنا: فهو التابع الذي يتوسط بينه وبين متبوعه أحد أحرف العطف التسعة، وهي: الواو والفاء وثُمَّ وحتى وأو وأم وبَلْ ولا ولكن⁽¹⁾.

أ- توظيف (الفاء)⁽²⁾:

* المثال الأول:

• قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) [سورة الإسراء: 56].

• قال الإمام ابن باديس رحمه الله: "و(لا يملكون) وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر؛ لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف، ولم يقصد بها السببية -ولا يصح أن تقصد بها السببية- لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبباً عن الدعاء، مثلها في قول الشاعر:

رَبِّ وَفَّقْنِي فَلَا أَعْدِلَ عَنْ ... سَنَنِ السَّاعِينَ فِي خَيْرِ سَنَنْ⁽³⁾

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق، وليس كذلك الأمر في هذه الآية؛ فإن عدم ملكهم متحقق، سواء دعوا أم لم يدعوا"⁽⁴⁾.

• استنبط هنا الإمام معنى لطيفاً، وهو أن عدم ملك الأئمة المدعويين لكشف الضر والتحويل متحقق سواء دُعُوا أم لم يُدْعَوْ؛ لأن الواو عاطفة لا سببية، ولو كانت سببية

(1) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 1، ص: 76.

(2) الفاء ترد على ثلاثة أوجه، انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ص: 213.

(3) البيت من الرمل، وهو بلا نسبة في الدرر 4 / 80؛ وشرح الأشموني 3 / 563؛ وشرح شذور الذهب ص 396؛ وشرح ابن العقيل ص 571؛ وشرح قطر الندي ص 72؛ والمقاصد النحوية 4 / 388.

(4) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 288.

لأمكن أن يقال إن عدم الملك متسبب عن الدعاء، لكنه معنى فاسد كما تقدم، وهذه الإشارة أخذها الإمام اعتماداً على المعنى الذي تفيده الفاء في الآية، أو بعبارة أخرى: أخذ الإمام تلك الإشارة بتوظيف علم النحو.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [سورة الفرقان: 70].

- قال ابن باديس رحمه الله: "والفاء في (فأولئك) تفرعية، لتفرع التبديل على التوبة"⁽¹⁾.
- تبديل السيئات حسناتٍ لا يكون إلا إذا حصلت توبة، يعني: التبديل فرع عن التوبة، وهذا المعنى وإن كان ظاهراً مفهوماً من الآية بالقوة، إلا أنّ الإمام قد أخذه اعتماداً على الفاء.

* المثال الثالث:

- قال تعالى: (لُنُنْدِرَ قَوْماً مَا أُنْدِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) [سورة يس: 6].
- قال رحمه الله: "أفادت الفاء في قوله تعالى: (فَهُمْ غَافِلُونَ) أن غفلتهم تسببت عن عدم إنذارهم"⁽²⁾.
- توظيف النحو في فهم الآية واضح جداً، فالتذكير والإنذار لا بدّ منهما؛ إذ الغفلة لا تزول إلا بهما.

(1) المرجع السابق، ص: 476.

(2) المرجع نفسه، ج: 2، ص: 72.

ب- توظيف (أو):

* المثال الأول:

• قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) [سورة الإسراء: 58].

• قال الإمام رحمه الله: "(إن) نافية، و(من) زيدت لاستغراق الجنس وتأکید العموم، و(إلا) أفادت مع إن النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعاً، و(أو) تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين"⁽¹⁾.

• بعد أن ذكر الإمام أن القرية محصورة في الإهلاك والعذاب، استفاد من (أو) معنى الإبهام وعدم التعيين، فإن كانت الحكمة في الإهلاك أهلکوا وأبيدوا واستأصلوا، وإن كانت في العذاب عذبوا دون أن يَفَنَوْا.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) [سورة النمل: 21].

• قال رحمه الله: "أفادت (أو) أن المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ج: 1، ص: 296.

(2) المرجع نفسه، ج: 2، ص: 36.

- وجه توظيف النحو في فهم الآية واضح جداً، ف(أو) حرف عطف يفيد التخيير أو الإباحة كما يقول النحاة، والإمام أسقط القاعدة على الآية، فمن هنا إذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح؛ لأن (أو) لا تفيد الجمع الذي تفيدُه الواو⁽¹⁾.

المطلب الثالث: استنباط المعاني بواسطة التوكيد

التَّوكِيدُ أو (التَّأْكِيدُ): تكريرٌ يُرادُّ به تثبيتُ أمرٍ المكرَّر في نفس السامع، نحو: جاءَ عليٌّ نفسه، ونحو: جاءَ عليٌّ عليٌّ. والتَّوكِيدُ قسمانِ لفظيٌّ ومعنويٌّ:

فاللفظي: يكونُ بإعادةِ المؤكِّدِ بلفظه أو بمرادفه، سواءً أكان اسماً ظاهراً، أم ضميراً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملةً.

وفائدةُ التَّوكِيدِ اللفظيِّ تقريرُ المؤكِّدِ في نفس السامع وتمكينه في قلبه، وإزالةُ ما في نفسه من الشُّبهة فيه.

والتَّوكِيدُ المعنوي: يكونُ بذكرِ النفسِ أو العينِ أو جميعٍ أو عامَّةٍ أو كلاً أو كلتا، على شرطٍ أن تُضاف هذه المؤكِّداتُ إلى ضميرٍ يُناسِبُ المؤكِّدَ⁽²⁾.

* المثال الأول:

- قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) [سورة يس: 12].

- قال الإمام رحمه الله: "وأكد اسم (إنَّ) بـ(نحن) ليفيد الاختصاص، فهو المحيي دون غيره"⁽³⁾.

(1) ينظر: شرح ألفية ابن مالك، ج: 3، ص: 232.

(2) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 3، ص: 231 وما بعدها (بتصرف).

(3) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الثاني، ص: 85.

- لفظة (نحن) تأكيد لفظي، وقد لا يعيرها القارئ انتباهها، وربما في أفضل الأحوال يتناولها من جانبها اللفظي النحوي فحسب، أما الإمام -عليه رحمة الله- فقد اتخذ الجانب اللفظي قنطرة للعبور إلى معنى لا تذكره كتب النحو في العادة، ألا وهو: الاختصاص، فالله هو المحيي وحده دون غيره.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ 50 وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) [سورة الذاريات: 50-51].
- قال ابن باديس رحمه الله: "وأكد الجملة لأنهم في مقام التردد أو الإنكار"⁽¹⁾.
- في هذا المثال أيضا لم تفت الإمام النكتة التي جيء بالتوكيد اللفظي من أجلها (تكرار جملة: إني لكم منه نذير مبين)، وهي: أن المخاطبين قوم منكرون أو مترددون، ويحسن التكرار وتوكيد في هذه المقامات.

المطلب الرابع: استنباط المعاني عن طريق البدل

تعريف البدل:

البدل في اللغة: العَوَضُ، وفي التنزيل (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا).

وفي الاصطلاح: هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة.

وأقسامه ستة: بدل كل من كل، وبدل بعض من كل، وبدل اشتغال، وبدل إضراب، وبدل نسيان، وبدل غلط.

فبدل الكل نحو: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين)، ف(الصراط) الثاني هو نفس (الصراط) الأول.

(1) المرجع السابق، ص: 95.

وبدل البعض نحو: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)، ف(مَنْ) في موضع خفض على أنها بدل من (الناس)، والمستطيع بعض الناس لا كلهم.

وبدل الاشتمال نحو: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه)، ف (قتال) بدل من (الشهر)، وليس القتال نفس الشهر ولا بعضه ولكنه ملابس له لوقوعه فيه.

وبدل الإضراب كقوله: إن الرجل ليصلي الصلاة ما كتب له نصفها ثلثها ربعها إلى العشر، وضابطه أن يكون البدل والمبدل منه مقصودين قصدا صحيحا وليس بينهما توافق كما في بدل الكل، ولا كلية وجزئية كما في بدل البعض، ولا ملابسة كما في بدل الاشتمال.

وبدل النسيان كقولك: جاءني زيد عمرو، إذا كنت إنما قصدت زيدا أولا ثم تبين فساد قصدك فذكرت عمرا.

وبدل الغلط كقولك: هذا زيد حمار، والأصل أنك أردت أن تقول: هذا حمار، فسبقك لسانك إلى زيد فرفعت الغلط بقولك حمار⁽¹⁾.

● قال تعالى: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) [سورة الفرقان: 68-69].

● قال الإمام ابن باديس رحمه الله: "(يضاعف) بدل من (يلق)، بدل كل من كل، قال الخليل: لأن مضاعفة العذاب هي لقي الآثام. وعندي أنه بدل بعض من كل، لأن لقي العذاب على تلك الآثام يكون في الدنيا والآخرة، ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون في الآخرة، وبهذا تكون الآية قد أفادت أن المرتكب لما تقدم من المعاصي-الشرك وقتل النفس والزنا- ينال جزاءه دنيا وأخرى، وعذاب الآخرة المضاعف المستمر أشد وأبقى"⁽²⁾.

(1) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ص: 567 وما بعدها.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 472.

- استعمال النحو في فهم معاني القرآن جليّ جدا في هذه الآية، فقد ذكر الإمام أن لفظة (يضاعف) تحمل وجهين من الإعراب:

الأول: أن نعربها بدل كل من كل من (يلق)، فتكون مضاعفة العذاب والخلود فيه هي نفسها لقاء الآثام، وهذا القول مال إليه الخليل.

الثاني: أن نعربها بدل بعض من كل؛ فيكون لقاء الآثام -على هذا الوجه- في الدنيا والآخرة معا، أما مضاعفة العذاب والخلود فيه فتكون في الآخرة فقط.

والوجه الثاني من الإعراب يعطي معنى زائدا للآية، وهو أن مرتكب الكبائر المتقدمة - الشرك وقتل النفس والزنا- تُعَجَّل له العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، وحمل الآيات على التأسيس للمعاني الجديدة أولى من حملها على التأكيد كما هو مقرر.

وهذا القول قد اختاره ابن باديس وصححه كما يُفهم من قوله: (وعندي).

المبحث الرابع: متفرقات

المطلب الأول: التقديم والتأخير

* تقديم ما حقه التأخير وأثره في الاستنباط من الآيات:

تقديم ما حقه التأخير من المباحث اللفظية التي يتناولها علم النحو بكثرة، ونجد ذلك في عدة أبواب، منها على سبيل المثال لا الحصر: باب المفعول به، والجار والمجرور... ثم إن التقديم قد يكون جائزا كما يقول النحاة، وقد يكون واجبا، وقد يكون ممنوعا⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• يقول تعالى: (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) [سورة الإسراء: 20].

• قال الإمام ابن باديس رحمه الله: "وقدم المفعول وهو (كُلًّا) رداً على من يعتقد أن الله تعالى يمد بعضاً دون بعض"⁽²⁾.

• الإمام كعاداته لم يقف على الألفاظ وقوفاً سطحياً، فلم يقل: (كُلًّا) مفعول به مقدم، وإنما ذكر ذلك وذكر علة التقديم أيضاً، وهذا هو الذي تفتقده كتب النحو، فالله سبحانه واسع العطاء؛ يرزق المؤمن ويرزق الكافر، ويعطي مريدي العاجلة كما يعطي مريدي الآخرة، فالرزق علّقه الله بأسبابه ولم يعلقه بالإيمان والكفر، أرأيت كيف فهم الإمام هذه الإشارات من تقديم المفعول به على عامله؟!

ولا بأس أن نثري الموضوع قليلاً وأن نفسر كلام ابن باديس المختصر في هذا الموضوع بكلامه المبسوط في موضع آخر، قال رحمه الله: "وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب

(1) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 1، ص: 62.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 210.

الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة- بإذن الله تعالى- من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين. ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم. نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب، فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلا النار⁽¹⁾.

* المثال الثاني:

- يقول تعالى: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) [سورة الفرقان: 64].
 - قال رحمه الله: "وقدم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم ويفيد الكلام عبادتهم وإخلاصهم"⁽²⁾.
 - حقّ الجار والمجرور في الآية الكريمة -وفي غيرها- أن يتأخر على عامله (سُجَّدًا وَقِيَامًا)؛ لأنّ الجار والمجرور في مقام المفعول به، والأصل في المفعول به أن يتأخر، لكنه في الآية تقدم على عامله لنكتتين تفتن لهما ابن باديس:
- الأولى:** تخصيص الله بالعبادة دون غيره، فعباد الرحمان يعبدون الله وحده ولا يعبدون معه إله آخر أيّا كان ذلك الإله.
- الثانية:** يفهم أيضا من تقدم الجار والمجرور الإخلاص لله تعالى، وإخلاص العبادة لله شيء زائد على تخصيصه بها.

الحاصل أن الإمام استنبط معنيين لطيفين من خلال توظيف مبحث نحوي.

(1) المرجع السابق، المجلد الأول، ص: 201.

(2) المرجع نفسه، ص: 442.

المطلب الثاني: استنباط المعاني عن طريق حذف العوامل والمعمولات

"الحذف" من المباحث التي يتجاذبها علم النحو وعلم البلاغة معا، فالبلاغيون يذكرونه في باب المعاني من كتبهم، أما النحاة فلا يكاد يخلو باب من أبواب كتبهم من الكلام عن الحذف، وإن لم يعتقدوا له بابا مستقلا كما فعل البلاغيون⁽¹⁾.

أ- حذف العوامل:

* المثال الأول:

- قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) [سورة يس: 12].
- قال الإمام رحمه الله: "أصل الكلام: أحصينا كل شيء أحصيناه، فحذف أحصينا الأول لدلالة الثاني، فكان هذا أقوى في ثبوت الإحصاء ووقوعه على كل شيء"⁽²⁾.
- كان يكفي الإمام أن يقول: في الآية حذف للعامل، وأصل الكلام كذا وكذا ويسكت! لكنه لم يفعل ذلك، بل ذكر ما يذكره النحاة عادة من حديث عن الألفاظ، ثم فهم منه تأكيد الإحصاء وشموله لكل شيء، فكان بذلك مستعملا للنحو في استخراج مكنونات المعاني.

(1) ينظر: البلاغة العربية، ج: 1، ص: 312.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الثاني، ص: 89.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [سورة الذاريات: 47].
- قال رحمه الله: "وقد تمت السماء لأنها المشاهد المحسوس الذي تقوم به الحجة، وليقع البناء عليها مرتين؛ على لفظها وعلى ضميرها، لأن الأصل: وبنينا السماء بنيناها، لتحقيق أنها مبنية، وأن بناءها لم يكن إلا من الله القادر الحكيم"⁽¹⁾.
- هذا المثال يشبه الذي قبله؛ فيه حذف العامل للدلالة على تأكيد وتحقيق وقوع البنيان، فلم يحذف العامل هكذا لغير نكتة.

ب- حذف المعمولات:

* المثال الأول:

- يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [سورة النحل: 125].
- قال الإمام: "وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس أجمعين -وحذف معمول (ادع) لإفادة العموم- إلى هذه السبيل"⁽²⁾.
- الآية الكريمة لم تقل مثلاً: ادع جميع الناس إلى سبيل ربك، لكن ابن باديس -وهو الضليع في علم العربية الفقيه بأسرارها- فهم العموم عن طريق المعمول المحذوف، نعم هنالك آيات أخرى صريحة تفيد أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الناس، لكن في الآية التي نتحدث عنها لا نستطيع أن نفهم العموم إلا بالطريقة التي فهمه منها ابن باديس، فهو لم يقف على النحو وقوفاً سطحياً، بل استعمله في استخراج المعاني،

(1) المرجع السابق، ص: 91.

(2) المرجع نفسه، المجلد الأول، ص: 181.

ولو كان نحويا سطحيا من ألائك النحويين اللفظيين لقال: في هذا التركيب مفعول به محذوف... ولما زاد على ذلك شيئا!

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) [سورة الإسراء: 56].

• قال ابن باديس رحمه الله: "وحذف معمولاً (زعم) والتقدير: (زعمتموهم آلهة)؛ للعلم بهما لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم آلهة في زعمهم"⁽¹⁾.

• لم يمرر الإمام هنا أيضا على الحذف مرور الكرام، بل ذكر أن المفعولين حذفاً للعلم بهما، وكأنه يقول: إن الدعاء لا يكون إلا لمن يظنه الداعي إلهاً، فحتى وإن لم تذكره الآية صراحة فنحن نفهمه منها؛ لأن النصوص الشرعية ترادفت على أن الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا لإله بحق أو بباطل والله أعلم... فانظر كيف أشار ابن باديس إلى معان كبيرة غزيرة بألفاظ يسيرة، كل هذا انطلاقاً من درس نحوي.

* المثال الثالث:

• قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) [سورة الحج: 38].

• قال رحمه الله: "وحذف مفعول (يدافع) ليعم كل ما يدفع، فشمل كيد جميع الكائدين"⁽²⁾.

• استفاد الإمام العموم عن طريق حذف مفعول (يدافع)، ومعلوم أن المؤمنين وقت نزول الآية كانوا في حالة من الضعف والخوف والشك في النصر، فجاءت هذه الآية بما فيها

(1) المرجع السابق، ص: 287-288.

(2) المرجع نفسه، ص: 359.

من عموم تثبتهم وتطمئنهم وتربط على قلوبهم، فالله عز وجل سيكفيهم كل أنواع الشرور، وسيدفع عنهم كل أنواع الأعداء.

المطلب الثالث: استنباط المعاني عن طريق التنوين

نحن هنا في غنى عن أن نثبت أنّ التنوين مبحث نحوي، فأول كلام نصادفه في كتب النحو بعد تعريف الكلام وتشقيقه إلى اسم وفعل وحرف، هو: أنّ التنوين من خواصّ الأسماء. ومع شهرة هذا المبحث سنعرّفه لغة واصطلاحاً باختصار.

التنوين لغة: التصويت.

واصطلاحاً: هو نون زائدة ساكنة تلحق الآخر لفظاً لا خطأ لغير توكيد، نحو: زيدٍ ورجلٍ وصيهٍ وحينئذٍ ومسلماتٍ⁽¹⁾.

* المثال الأول:

• قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) [سورة الفرقان: 32].

• قال رحمه الله: "والتنوين في (ترتيلاً) تنوين تنويع وتعظيم، أي: نوعاً من الترتيل عظيماً"⁽²⁾.

• انظر كيف فهم ابن باديس معنى التنويع والتعظيم من التنوين، وكيف وظّفه في إثراء الدرس التفسيري، مع أن التنوين مبحث لفظي لا يعيره الناس اهتماماً في العادة!

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) [سورة الفرقان: 71].

(1) قطر الندى وبل الصدى، ص: 12.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 415.

- قال رحمه الله: "وتنوين متابا تنوين تفخيم وتعظيم"⁽¹⁾.
- هنا أيضا يتجاوز الإمام المباحث اللفظية الجوفاء، ويفهم من خلال التنوين أن المتاب متاب عظيم فخيم!

* المثال الثالث:

- قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) [سورة النمل: 15].
- قال رحمه الله: "(علما) نوعا عظيما ممتازا من العلم جمعا به بين الملك والنبوة"⁽²⁾.
- لم يُغفل الإمام التنوين، وفهم منه عظمة العلم الذي أوتاه سليمان وداود عليهما السلام!

المطلب الرابع: تنويع المعاني باختلاف الأعراب

في بعض الأحيان يذكر الإمام للكلمة الواحدة أكثر من إعراب، وتكون الكلمة محتملة لتلك الأوجه جميعا، ثم يفرّع انطلاقا من تلك الأعراب معاني مختلفة للآية، والاختلاف هنا اختلاف تنوع طبعاً، لا اختلاف تضاد وتعارض.

يقول ابن باديس رحمه الله: "على أنه من بلاغة القرآن أن تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات، فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات، نظير مجيء الآية بقراءتين فتكون كآيتين⁽³⁾..."، فمن أمثلة ذلك:

(1) المرجع السابق، ص: 481.

(2) المرجع نفسه، ج: 2، ص: 16.

(3) محالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ج: 1، ص: 483.

* المثال الأول:

• قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [سورة الفرقان: 63].

• قال رحمه الله: "ونصب (سلاماً) على أنه مفعول مطلق والتقدير: قالوا قولاً سلاماً، أي: ذا سلام، فيشمل كل قول فيه سلامة من الأذى والمكروه، كسلام عليكم، ويغفر الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك.

أو نصب على أنه مفعول به، أي: قالوا هذا اللفظ سلاماً نفسه"⁽¹⁾.

• إذاً فيحتمل أن يكون عباد الرحمن يقولون في الرد على الجاهلين كلمة (سلام) بعينها، كما يحتمل أن يقولوا أيّ كلمة طيبة أخرى، والمعنيان متفرعان على الإعرابين المتقدمين ولا تناقض بينهما، فتحمل الآية الكريمة عليهما كليهما.

وذكر الإمام أيضاً في نفس الصفحات أن كلمة (هونا) إما أن تعرب مفعولاً مطلقاً، والتقدير: مشياً هونا، أي: رفيقاً، وإما أن تعرب حالا من فاعل (يمشون)، والتقدير: هيين، أي: في معاملتهم مع الناس وفي جميع أمورهم، فعلى الإعراب الأول يكون (هونا) صفة للمشياً، وعلى الإعراب الثاني يكون صفة للماشين، والآية الكريمة تحتل كل ذلك بلا تعارض، فتحمل على كل ذلك، والله أعلم.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) [سورة الفرقان: 72].

• قال رحمه الله: "إذا كان (لَا يَشْهَدُونَ) بمعنى: لا يحضرون فالزور مفعول به، وإذا كان بمعنى: لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف، والأصل: ولا يشهدون شهادة الزور"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص: 437-438.

- الآية الكريمة تحتل وجهين من الإعراب، ولا تناقض بينهما، فتحمل عليهما معاً، وتكون الآية بهذين الاحتمالين كآيتين:

الوجه الأول: أن نعرب لفظة (الزور) مفعولاً به ل (لا يشهدون)، (ويشهدون) على هذا الوجه مأخوذ من الشهود بمعنى الحضور، فيكون تقدير الآية هكذا: والذين لا يحضرون كل مجلس تُنتهك فيه حرمة الله.

الوجه الثاني: أن نعرب لفظة (الزور) مفعولاً مطلقاً حذف منه المضاف، والأصل: والذين لا يشهدون شهادة الزور، و(يشهدون) على هذا الوجه مأخوذ من الشهادة.

* المثال الثالث:

- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...) [سورة المائدة: 6].

- قال الإمام رحمه الله: "وقوله تعالى في آية الوضوء: (وَأَرْجُلَكُمْ) بالنصب عطفاً على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامة، وبالحذف عطفاً على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف"⁽²⁾.

- في هذه الآية أيضاً تنوعت المعاني بتنوع الأعراب فصارت الآية كآيتين؛ فلفظة (أَرْجُلَكُمْ) إما أن نعربها بالنصب عطفاً على (وَجُوهَكُمْ)، وإما أن نعربها بالجر عطفاً على (رُءُوسِكُمْ)، فعلى الإعراب الأول تكون الأرجل مغسولة وهي حالة العزيمة، وعلى الإعراب الثاني تكون ممسوحة وهي حالة الرخصة، ولا تعارض بين المعنيين، فتحمل الآية عليهما معاً.

الحاصل أن المعاني المستنبطة من هذه الآية ومن الآيات التي قبلها كلها معان مأخوذة بأوجه نحوية صحيحة، وهذا ما نوّد أن نشبّه في هذه الورقات الضئيلة.

(1) المرجع نفسه، ص: 482.

(2) المرجع السابق، ص: 483-484.

المطلب الخامس: استعمال الصيغ في الاستنباط

أ- استنباط المعاني بتوظيف صيغ المبالغة:

صِيغُ المبالغة أو أمثلة المبالغة من المباحث التي تتطرق لها كتب النحو العربي؛ لأن هذه الأمثلة تعمل عمل الفعل، والإعمال والإهمال، وتغيير أواخر الكلم، وغيرها من المباحث اللفظية=هو قصارى ما يهتم به النحاة.

- تعريف صيغ المبالغة:

هي ألفاظٌ تدلُّ على ما يدلُّ عليه اسمُ الفاعل بزيادة كعلامةٍ وأكولٍ، أي: عالمٍ كثير العلم، وآكلٍ كثير الأكل.

ولها أحد عشر وزناً، وهي: "فَعَّالٌ" كجَبَّارٍ، و"مَفْعَالٌ" كمِفْضَالٍ، و"فَعَّيْلٌ" كصِدِّيقٍ، و"فَعَّالَةٌ" كفَهَامَةٍ، و"مَفْعِيلٌ" كمِسْكِينٍ، و"فَعُولٌ" كشُرُوبٍ، و"فَعِيلٌ" كعَلِيمٍ، و"فَعِلٌ" كجَذِرٍ، و"فُعَّالٌ" ككُتَّابٍ، و"فُعُولٌ" كقُدُّوسٍ، و"فِيعُولٌ" كقَيُّومٍ. وأوزانها كلها سماعية فيُحفظُ ما ورد منها، ولا يقاسُ عليه⁽¹⁾.

* المثل الأول:

• يقول تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) [سورة الإسراء: 25].

• قال رضي الله عنه: "وجاء لفظ (الأوابين) جمعاً لأواب، وهو فعَّال من أمثلة المبالغة، فدل على كثرة رجوعهم إلى الله، وأفاد هذا طريقة إصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع إلى الله... (والغفور) في قوله تعالى: (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) [سورة الإسراء: 25] هو الكثير المغفرة، لأنه على وزن فعول، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة، والمغفرة سترة للذنوب وعدم مؤاخذته به، ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم إليه، ذكر

(1) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 1، ص: 193.

من أسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته ليقع التناسب في الكثرة من الجانبين ومغفرته أكبر، وليعلم أن كثرة الرجوع إليه يقابله كثرة المغفرة منه، فلا يفتأ العبد راجعاً راجياً للمغفرة، ولا تقعه كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع، ولا يضعف رجاءه في نيل مغفرة الغفور كثرة الرجوع"⁽¹⁾.

● النفس الإنسانية يعتريها ما يعتريها من شهوة وغفلة؛ لذلك فهي -لا شك- منغمسة في الذنوب والمعاصي الصغيرة أو الكبيرة، ولا شيء يصلح فساد النفس - وفسادها يكون بالمعاصي - ككثرة الرجوع إلى الله، وبما أن فساد النفس متكرر فينبغي أن يكون الإصلاح بالأوبة متكرراً أيضاً... هذا بعض ما أخذه ابن باديس من وزن (أوابين).

ثم لما علم الله سبحانه وتعالى أن عباده الصالحين كثيرون الذنوب، وأن هذه الكثرة قد تضعف رجاءهم في المغفرة = أخبرهم أن مغفرته أكبر من ذنوبهم، فكثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة، وهذا مستفاد من وزن (غفور).

* المثال الثاني:

● قال تعالى: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) [سورة الناس: 4].

● قال رحمة الله عليه: (الْخَنَّاسُ) وصف مبالغة في الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم، ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته في المحسوس أنه يذهب ويحيى ويظهر ويختفي إغراقاً في الكيد وتقصياً في التطور حتى يبلغ مراده، فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كراً وفراداً، وهجوماً وانتهازاً واستطراداً على التصوير الذي صور به إبليس في ما حكى الله عنه: (ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) [الأعراف: 17]. يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها، ولنضيق عليه المسالك التي يسلكها.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 237/236.

كما أن وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد؛ لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب تذبذبه بذكر الله من ناحية فيأتيك من ناحية ثم دواليك حتى تمل أو يمل⁽¹⁾.

• يتضح لنا من كلام الإمام أنه ولّد معاني غزيرة اعتماداً على صيغة المبالغة، ولا يخفى أنّ صيغة المبالغة مبحث نحوي، ويمكن تلخيص تلك المعاني في هذه النقاط الثلاث:

الأولى: أول ما يُفهم من صيغة المبالغة (الخنّاس) أن الشيطان متفنّن في الإغراء والفتنة والوسوسة، فلا يدع سبيلاً لإغواء الإنسان إلا سلكه!

الثانية: إذا علمنا ما تقدم وجب علينا اليقظة والحذر والتحفظ من هذا العدو.

الثالثة: مهما بلغ الشيطان من الكيد يبقى ضعيفاً؛ لأنّ الخنوس ليس من صفات الأقوياء

إذاً فلفظة (الخنّاس) وحدها حذرتنا من الشيطان، وفضحت لنا كيده حتى لكأننا نراه، وأمرتنا بأخذ العدة، وأطلعتنا على ضعف عدونا، كل هذه المعاني من صيغة المبالغة فقط! فما أبلغ القرآن!، وما أعظم بلاغته!، وهل في المعجم إذا أدركناه كلمة أخرى نستطيع أن نسدّ بها مسدّ كلمة (الخنّاس)؟!

ب- الاستنباط بتوظيف صيغة أفعال التفضيل:

اسم التفضيل كذلك من المباحث التي تتطرق لها كتب النحو؛ لأنه يعمل عمل الفعل، وهذا من صميم علم النحو.

- **تعريف اسم التفضيل:** "اسم التفضيل صفة تُؤخذ من الفعل لتدلّ على أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر فيها، مثل: (خليلٌ أعلم من سعيد وأفضل منه)"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، المجلد: الثاني، ص: 125.

(2) ينظر: جامع الدروس العربية، ج: 1، ص: 29.

* المثال الأول:

• يقول تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) [سورة الإسراء: 53].

• قال رحمه الله: "وأفاد قوله تعالى (أحسن) بصيغة اسم التفضيل أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة، فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام"⁽¹⁾.

• لم يدعنا ابن باديس في هذا الموضع نستنبط من كلامه ونستنتقه كما كنا نفعل من قبل، فقد ذكر لنا ما تفيده صيغة (أفعل) بالإجمال، ثم أحال على تفصيل كان ذكره قبل ذلك الإجمال، وما نحن ننقله حرفياً.

قال رحمه الله: "(الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها فيعم ذلك ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس، حتى ينادي بعضهم بعضاً بأحب الأسماء إليه، وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون، فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء، وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون أذاية لخصمه، ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به وما يكون من باب إقامة الحجة وعرض الأدلة، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس، خالية من السب والقبح، ومن الغمز والتعريض، ومن أدق تلميح إلى شيء قبيح.

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم... وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمة تقال، ولو كلمة واحدة، فرب كلمة واحدة أوقدت حرباً، وأهلكت شعباً، أو شعوباً. ورب كلمة واحدة أنزلت أمناً وأنقذت أمة أو أمماً. وقد بين لنا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مكانة الكلمة الواحدة من الأثر في قوله: (الكلمة الطيبة صدقة) و(اتقوا النار ولو بكلمة طيبة)، وهذا الأدب الإسلامي - وهو التروي

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 284.

عند القول، واجتناب السيء واختيار الأحسن - ضروري لسعادة العباد وهنائهم، وما كثرت الخلافات وتشعبت الخصومات وتنافرت المشارب، وتباعدت المذاهب حتى صار المسلم عدو المسلم - والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: (المسلم أخو المسلم) - إلا بتركهم هذا الأدب، وتركهم للتروي عند القول وللتعمد السيء، بل للأسوأ في بعض الأحيان⁽¹⁾.

أرأيت كيف استنبط ابن باديس كل هذه المعاني الغزيرة وغيرها اعتمادا على وزن (أفعل) فقط؟!، ووزن (أفعل) أو صيغة التفضيل هي من صميم علم النحو.

* المثال الثاني:

• يقول تعالى: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [سورة الفرقان: 34].

• قال رضي الله عنه: "وأفعل التفضيل لم يذكر معه المفضل عليه؛ ليفيد أن مكانهم شر مكان من أمكنة الشر، وسبيلهم أضل سبيل من سبل الضلال"⁽²⁾.

• الآية الكريمة لم تصرح بالمفضل عليه، فلم تقل: أولئك شر مكانا من كذا وكذا وأضل سبيلا من كذا وكذا، وابن باديس - كعادته - لم يغفل عن هذا بل فهم من حذف المفضل عليه التفضيل المطلق، فالآية إذاً تفسح المجال للخيال ليسرح ويتفكر في شر مكان وأضل سبيل، فإذا وصل الخيال إلى شيء من ذلك - وما إخاله أصلا - فليعلم أن الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا من جميع وثبات خياله!

ج- توظيف صيغة الاسم المفرد:

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 283-284.

(2) المرجع نفسه، ص: 422-423.

• قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [سورة الفرقان: 74].

• قال رحمه الله: "(الإمام) هو المتبع المقتدى به، وأفرد لأن المراد به الجنس، وحسن الأفراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها، ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقهم بالسير على الصراط المستقيم واتحاد وجهتهم بالقصد إلى الله تعالى وحده"⁽¹⁾.

• قد يغفل غير ابن باديس عن سبب ورود لفظة (إماما) بصيغة المفرد، أما الإمام فقد استخرج من هذه الصيغة فائدتين؛ إحداها لفظية، والأخرى معنوية.

فأما اللفظية: فحتى تكون فواصل الآيات كلها على نسق واحد، وما زال العلماء حائرين في أسرار فواصل الآيات.

وأما المعنوية: فلأن أئمة الهدى لهم طريق واحد ومقصد واحد ودعوة واحدة، فحسن الأفراد من أجل هذا الملحظ، والله أعلم.

– الاستنباط باستعمال الصيغ والأبنية:

أكثر الإمام ابن باديس من استنباط المعاني التفسيرية عن طريق توظيف صيغة الفعل المبني للمعلوم، وقد تبعت ذلك فوجدته وظفها في أكثر من عشرين موضعاً من تفسيره.

وتقسيم الفعل إلى ماض ومضارع وأمر، وإلى مبني للمعلوم ومبني للمجهول = يعدّ من أبجديات علم النحو العربي، ولا تكاد تخلو منه كتب النحو سواء أكانت مختصرة أم متوسطة أم مبسطة، غير أن النحاة دائماً يقفون عند ظواهر الألفاظ ولا يتجاوزونها إلى دقائق المعاني كما يفعل أهل المعاني.

والفعل المضارع: هو ما دلّ على حصول شيء في زمن التكلم أو بعده.

(1) المرجع السابق، ص: 493.

والماضي: ما دلّ على حصول شيء قبل زمن التكلم.

والمبني للمعلوم: هو الذي يطلب فاعلا لا نائباً عن الفاعل.

والمبني للمجهول: ما طلب نائباً عن الفاعل لا فاعلا⁽¹⁾.

أ- توظيف صيغة الفعل المضارع المبني للمعلوم:

* المثال الأول:

• قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [الشعراء: 82].

• قال رحمه الله: "وجه الدليل في الآية أن إبراهيم -عليه السلام- أخبر عن نفسه بصيغة المضارع المفيد للتجدد أنه يطمع من الله أن يغفر له خطيئته، فدل ذلك على أنه كان في عبادته طامعاً، ومعلوم أنه معصوم وأنه مؤمن من العذاب"⁽²⁾.

• استدل الإمام بصيغة المضارع في الآية الكريمة على مسألة مهمة جرى فيها الخلاف بين الناس، وهي: أيهما أكمل؛ العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟، ثم بعدما ساق أدلة الفريقين رجح في الأخير أن العبادة الشرعية موضوعة على الخوف والرجاء، ومن جملة الأدلة الكثيرة التي حشدها في المسألة هذه الآية الكريمة.

ووجه الاستدلال فيها صيغة المضارع (أطمع) الدالة على التجدد، فطمع إبراهيم في مغفرة الله كان دائماً متجدداً، ومحال أن تغيب حقيقة العبادة عمّن أرسله الله ليعلم الناس العبادة!

(1) معجم الإعراب والإملاء، ص: 388.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ج: 1، ص: 452.

الحاصل: أن ابن باديس استدل بصيغة المضارع التي قد لا يعيرها الناس انتباها واهتماما=على قضية مهمة من قضايا الدين، واستخرج بها إشارات لطيفة قد تغيب عن أذهان كثير من الناس.

* المثال الثاني:

• قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [سورة المائدة: 15-16].

• قال الإمام في تفسير الآية: "إن الحاجة إلى إرشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة، فكل عمل من أعمال الإنسان، وكل حال من أحواله هو محتاج فيه إلى هداية الله ودلالته ... وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد في (يهدي) و(يخرجهم) و(يهديهم)"⁽¹⁾.

• فانظر كيف استخرج ابن باديس تلك المعاني عن طريق صيغة المضارع، ولم يقف عند الظواهر التي يقف عندها النحويون؛ إذ ليس يعينهم إلا تقسيم الأفعال إلى ماض ومضارع وأمر، أما المعاني التي تختبئ تحت الصيغ والأوزان فلا يتطرقون إليها كثيرا.

* المثال الثالث:

• قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [سورة الإسراء: 82].

• قال ابن باديس رحمه الله: "وعبر بالمضارع في (ننزل) و (يزيد) قصدا لمعنى التجدد؛ لأن الآيات كانت تنزل شيئا فشيئا"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، ص: 173.

- فانظر كيف استخرج ابن باديس تلك المعاني عن طريق صيغة المضارع، ولم يقف عند الظواهر التي يقف عندها النحويون؛ إذ ليس يعينهم إلا تقسيم الأفعال إلى ماض ومضارع وأمر، أما المعاني التي تختبئ تحت الصيغ والأوزان فلا يتطرقون إليها كثيراً.

* المثال الرابع:

- قال تعالى: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) [سورة النمل: 23].

- قال رحمه الله: "(تملكهم) تتولى أمرهم ملكة عليهم، وعبر بالمضارع تصويراً للحال العجيب وهو أن تتولى ملكهم امرأة"⁽²⁾.
- في الأمثلة السابقة كان الإمام يلمح من صيغة المضارع معنى الحدوث والتجدد، وفي هذا المثال لمح منه معنى التعجب، التعجب من ولاية المرأة الملك، وهذا ما تركني أضيف هذا المثال، وإلا؛ ففي الأمثلة السابقة كفاية.

* المثال الخامس:

- قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) [سورة الحج: 38].

- قال رحمه الله: "ولكون هذا الدفع متجدداً جيء بالفعل المضارع"⁽³⁾.
- لا يخفى وجه الشاهد من كلام الإمام رحمه الله، فهو لم يُغفل صيغة المضارع وما تفيد من معنى التجدد، وهكذا ينبغي أن يكون مفسر القرآن؛ يقف عند كل كلمة قرآنية، بل يقف عند كل حرف وعند كل حركة، فحتى الحركات لها دلالاتها في هذا الكتاب المعجز.

(1) المرجع نفسه، ص: 328.

(2) المرجع السابق، ج: 2، ص: 42.

(3) المرجع نفسه، ص: 358.

ب- توظيف صيغة الماضي المبني للمعلوم:

- قال تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [سورة الفرقان: 33].

- قال رضي الله عنه: "والتعبير بالمضارع في (يأتونك) يفيد الحدوث وتجدد الإتيان منهم، والتعبير بالماضي في (جئناك) مع أنه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت"⁽¹⁾.

- في هذا المثال وظّف الإمام صيغة الماضي المبني للمعلوم في استنباط المعاني، فبعدما ذكر أن (يأتونك) تفيد التجدد والحدوث وقد شرحنا هذا في الأمثلة السابقة=ذكر أن (جئناك) بصيغة الماضي تفيد تحقق المجيء، فأنزل ما لم يقع بعد منزلة ما وقع يقينا مراعاة لمقام التثبيت، وكأني بالآية تقول: لا تخف يا محمد! فكلما جاءتك منهم شبهة كلما أسرع إليك منا ما ينقضها تحقيقا.

ج- توظيف صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول:

* المثال الأول:

- قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) [سورة الفرقان: 73].

- قال الإمام رحمه الله: "وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكّر كان"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص: 420.

(2) المرجع نفسه، ص: 488.

- أفادت صيغة الماضي المبني للمجهول هنا معنى لطيفا، وهو أنّ التذكير ينبغي أن يُقبل من أيّ مذكّر كان دون التفات إلى جنسه أو مكانته أو صفته، فالشأن كل الشأن في قبول التذكير، أما مصدر التذكير فلا يهم؛ لذلك أعرضت الآية عن ذكره.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [سورة النمل: 17].
- قال رحمة الله عليه: "وفاعل (حشر) هم الأعوان الحاشرون. وفاعل (وزع) هم الضباط المنظمون"⁽¹⁾.
- فهم الإمام من الفعلين (حُشِرَ) و(يُوزَعُونَ) المبنيين لما لم يسمّ فاعله أنّ جيش سليمان - عليه السلام - كان غاية في النظام والإحكام، فكل وظيفة لها جنود مكلفون بها؛ فالحشر له أعوانه، والوزع له ضباطه، وهكذا... فالفاعلان بالبناء لما لم يسمّ فاعله يتركان الخيال يسرح في كيفية ذلك الانضباط الذي كان عليه جيش سليمان.

المطلب السادس: استعمال الجمل في الاستنباط

1- -توظيف الجملة الاسمية في الاستنباط:

من المقررات في علم النحو أن أقلّ ما يتألف منه الكلام اسمان أو اسم وفعل، إذا فالجمل إما أن تكون اسمية وإما أن تكون فعلية، وسنكتفي ههنا بتعريف الجملة الاسمية فقط

(1) المرجع السابق، ج: 2، ص: 24.

لما لها من العلاقة بموضوعنا. الجملة الاسمية: ما كانت مؤلفة من المبتدأ والخبر، نحو "الحق منصورٌ" أو مما أصله مبتدأ وخبرٌ، نحو "إن الباطل مخذولٌ"⁽¹⁾.

• قال الله تعالى: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) [سورة الإسراء: 19].

• قال الإمام رحمه الله: "وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الإيمان ورسوخه حال العمل، وعلى قدر ثبوت الإيمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال، فالمؤمن بالله يعمل موقناً برضاه، موقناً بلقائه وعظيم جزائه، فهو يعمل ولا يفشل، وسواء عليه أوصل إلى الغاية التي يسعى إليها، أم لم يصل إليها بأن حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت؛ كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره إلا بعد أجيال، فأفادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل، وسر الدوام عليه والمضي بغبطة وسرور فيه"⁽²⁾.

• في الحقيقة ليس لديّ هنا ما أضيفه على كلام الإمام، فقد بيّنه غاية البيان، وفصله غاية التفصيل، فكل تلك المعاني اللطيفة؛ من ثبوت الإيمان ورسوخه، ولزوم الثبات على العمل والدوام عليه... الخ = كل تلك المعاني استخرجها الإمام اعتماداً على ما أفادته الجملة الاسمية من معنى، ومبحث الجملة الاسمية هو مبحث له وجه نحوي والله أعلم.

2- استنباط المعاني عن طريق مبحث (الحال):

نحن هنا في غنى عن أن نثبت أنّ الحال من مباحث علم النحو الشهيرة؛ لذا سنبدأ مباشرة بتعريفه لغة واصطلاحاً:

الحال لغة: منقلبة الألف عن واو، لقولهم في جمعها أحوال، وفي تصغيرها حويلة، واشتقاقها من التحول وهو التنقل، ويجوز فيها التذكير والتأنيث لفظاً ومعنى⁽³⁾.

(1) جامع الدروس العربية، ج: 3، ص: 284.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 208.

(3) ينظر لسان العرب، مادة (حول)، ج: 4، ص: 1679.

واصطلاحاً: وصف فضلة مذكورة لبيان الهيئة، ويأتي مفرداً ويأتي جملة⁽¹⁾.

* المثال الأول:

- يقول تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [سورة الفرقان: 20].

- قال رحمه الله: "مفعول أرسلنا محذوف تقديره (رجالاً)، وعليه عاد الضمير في (أنهم)، وهو صاحب الحال، والحال هي الجملة التي بعد إلا، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى، والاستثناء مفرغ من الأحوال، وتقدير الكلام: وما أرسلنا قبلك رجالاً من المرسلين إلا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، أي: ما أرسلناهم في حالة من الأحوال إلا في هذه الحال"⁽²⁾.

- بعدما يتقرر لدينا أن باب (الحال) من صميم علم النحو، نجد ابن باديس يوظف هذا الدرس في استخراج المعاني من الآيات، فيذكر أن الغرض من تلك الأحوال في الآية هو إثبات أن رسول البشر لا يكون إلا بشراً رداً على من أنكر ذلك من المشركين، بل إن رسول البشر لا يجوز أن يكون إلا على هذه الهيئة البشرية حتى يستأنس به الناس ويأخذوا عنه.

(1) ينظر: شرح التصريح على التوضيح، ج: 1، ص: 569.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 389.

* المثال الثاني:

• يقول تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) [سورة الفرقان: 27-28-29].

• قال ابن باديس رضي الله عنه: "جملة (يقول يا ليتني) حالية فهو يعض حالة كونه قائلاً: يا ليتني، فبينت هذه الجملة ما يقول، كما بينت التي قبلها ما يعمل، فصوّرتاه في حاله الشنيع الفظيع"⁽¹⁾.

• ملح الإمام في هذه الآية إشارة لطيفة عن طريق الجملة الحالية (يقول يا ليتني) وهي: أن عضّ الظالم يده من الندامة يكون مصاحباً ومقارناً لقوله: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً.

فالجملة الحالية صيرت الآية المتلوّة كأنها مشهد يُرى أو صورة مجلّوة، وهذا ما لم يفت العلامة ابن باديس رحمه الله، في حين أن غيره قد لا يزيدون عن قولهم: و(يقول يا ليتني) جملة حالية... فلله درّ ابن باديس ما كان أبصره باللغة العربية!

3- توظيف الجملة الشرطية في الاستنباط:

الشرط عند النحاة هو: تعليق شيء بشيء وجوداً أو عدماً، وهذا الباب قائم على ثلاثة أركان: أداة الشرط، فعل الشرط، جواب الشرط... ثم إن أدوات الشرط قد تكون جازمة وقد تكون غير جازمة⁽²⁾.

* المثال الأول:

(1) المصدر السابق، المجلد الأول، ص: 402.

(2) معجم الإعراب والإملاء، ص: 322.

- يقول تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [سورة الإسراء: 25].

- قال رضي الله عنه: "وقد اشتملت الآية من فعل الشرط، وهو (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ)، وجواب الشرط، وهو (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) = على الحالتين اللازمتين للإنسان لتكميل نفسه، وهما الصلاح المستفاد من الأول، والإصلاح بالأوبة المستفاد من الثاني، وما دام الإنسان مجاهداً في تركية نفسه بهذين الأصلين فإنه بالغ - بإذن الله - درجة الكمال"⁽¹⁾.

وظّف الإمام عليه رحمة الله قاعدة الشرط في استنباط الحالتين اللازمتين للإنسان لتكميل نفسه، ولم يمرر على هذه القاعدة النحوية مروراً، كما أنه لم يقف على ألفاظها وقوفاً سطحياً، وإنما استغلّ النحو وطوّعه وجعله خادماً للمعاني لا مجرد قواعد جوفاء.

* المثال الثاني:

- قال تعالى: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) [سورة الإسراء: 83].

- قال رحمه الله: "جيء بفعل الشرط وجوابه ماضيين، لتحقيق وقوعهما"⁽²⁾.
- سبق وأن قررنا أنّ الشرط مبحث نحوي شهير، وها هو الإمام في هذه الآية أيضاً يوظف مبحث الشرط في استخراج المعاني القرآنية، فبين لنا عن طريق ماضوية فعل الشرط وجوابه أن كلاً من الإنعام والإعراض والمس بالشر واليأس=متحقق الوقوع.

* المثال الثالث:

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ج: 1، ص: 238.

(2) المرجع السابق، ص: 336.

• قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [سورة الفرقان: 63].

• قال رحمه الله: "وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد، فإن المشي في الأرض ضروري للإنسان، وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط؛ لأن خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائماً، وكان التعليق ب: إذا لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق، ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟! "⁽¹⁾.

فهم الإمام من جملة الشرط أمرين:

الأول: أن خطاب الجاهلين لعباد الرحمان لا يكون دائماً، فتارة يخاطبونهم وتارة يكفون عنهم، وهذا أخذه الإمام من طبيعة الشرط بغض النظر هل هو ب (إذا) أو بأداة أخرى

الثاني: إذا وقع الخطاب فلن يسلم عباد الرحمان من قالة السوء، وتحقيق مجيء السوء من الجاهلين أخذه الإمام من (إذا) نفسها... إذًا فهما معنيان أخذهما الإمام اعتماداً على مبحث نحوي !

المطلب السابع: توظيف (ظن وأخواتها) في استنباط المعاني

ظن وأخواتها من الأفعال التي تتعدى لمفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وهي على قسمين؛ أفعال قلوب، وأفعال تصيير، فمن شواهد أفعال القلوب قوله تعالى: (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)، ومن شواهد أفعال التصيير قوله تعالى: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)⁽²⁾.

• قال تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [سورة الفرقان: 30].

(1) المرجع نفسه، ص: 437.

(2) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ص: 462 وما بعدها.

• قال رضي الله عنه: "وفي قوله: (اتخذوا...الخ) بيان أنهم جعلوا الحجر ملازماً له ووصفاً من أوصافه عندهم، وذلك أعظم من أن يقال هجروه، الذي يفيد وقوع الحجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة"⁽¹⁾.

• ابن باديس هنا وظف قواعد النحو ببراعة كبيرة، فلم يقل مثلاً: الفعل (اتخذ) من أخوات ظن ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وأصل نظام الكلام قبل دخول (اتخذ) هكذا: القرآن مهجور... كلا! بل إنه غاص إلى ما هو أعمق من ذلك، ففهم من (اتخذ) معنى التصيير والتحويل، أي: أن قومه بالغوا في حجر القرآن حتى عاد الحجران وصفا ملازماً له عندهم لا يفارقه، ولا يخفى أن التعبير ب(اتخذوا) أبلغ من التعبير ب(هجروا)، والله أعلم.

(1) ابن باديس حياته وآثاره، المجلد الأول، ص: 407.

الخاتمة

الخاتمة

بعد بضعة أشهر قضيتها في القراءة والكتابة والتفكير والعمل المتواصل، ها أنا ذا أصل إلى آخر محطة من محطات هذا البحث المتواضع: "توظيف النحو في إثراء الدرس التفسيري عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، وأشهد أنّ هذه الأوقات التي قضيتها في رحاب البحث العلمي بصحبة الأستاذ الرئيس، عبد الحميد ابن باديس؛ كانت من أسعد أوقات حياتي، فلا شيء يعدل لذة العلم !

وكما جرت العادة والعوائد سأختم البحث بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها بعد هذه الرحلة الممتعة النافعة؛ رحلة الإجابة عن الإشكال:

1- ابن باديس شخصية ثريّة، غنيّة، شاملة، كاملة، جوانب العظمة فيها كثيرة، ولقد حظي رحمه الله باهتمام منقطع النظير من قِبَل الكُتّاب والباحثين، فكل جانب من جوانب شخصيته قد أُفرد بمؤلفات وخصّ بدروس ومحاضرات، ولقد أحصى الأستاذ الدكتور مسعود بن موسى فلوسي في كشّافه⁽¹⁾ ما يزيد عن 600 عمل؛ ما بين مقالات، وبحوث، ودراسات، وكتب، ورسائل جامعية = كلّها كُتبت عن هذا الإمام العظيم وعن عبقريته الفدّة !

2- بالرغم من أنّ الإمام ابن باديس استمرّ يفسر القرآن طوال خمسة وعشرين سنة متتالية، غير أنه لم يصلنا مكتوبا من تفسيره إلا النزر اليسير، ولا يُشترط لنستدلّ على إمامة ابن باديس في التفسير أن يصل إلينا تفسيره كاملا، ففي الذي وصلنا -مع شحّه- كفاية، بل إنّ صفحة واحدة ممّا وصلنا من تفسيره لكافية في الدلالة على إمامة الرجل في التفسير والمعيّته ورسوخ قدمه فيه، ومن طالع تفسيره عرف ذلك، وعرف أيضا حجم الخسارة التي لحقت المكتبة الجزائرية والإسلامية بعدم تدوين ذلك التفسير كاملا !

(1) مسعود بن موسى فلوسي، الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي كشّاف بيبليوغرافي، الطبعة الأولى، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، 1437هـ/2016م.

الخاتمة

3- ابن باديس إلى إمامته في علم التفسير؛ إمامٌ عظيم من أئمة اللغة العربية، ومنزلته اللغوية لا تقل خطورة عن منزلته التفسيرية، بل إن إمامته التفسيرية مدينة لزعامته اللغوية؛ إذ لا يمكن أن تكون مفسراً إلا إذا أسلمتك اللغة العربية قيادها.

4- سواءً أصنّفنا تفسير ابن باديس ضمن دائرة التفسير بالرأي، أو ضمن دائرة التفسير الأدبي الاجتماعي، أو في غيرها من المدارس = فلم يقل أحد من الباحثين -حسب اطلاعي القاصر- بأنه ينتمي إلى مدرسة التفسير اللغوي؛ فمن هنا يُفترض ألا يكون عامراً بالمباحث اللغوية، أليس كذلك؟!، لكنك إذا أمسكت الكتاب وأخذت تطالعه اندهشت للكمّ الهائل من المسائل اللغوية التي تصادفها أثناء القراءة، بل لن أكون مبالغاً إذا قلت: إنه لا تكود تخلو صفحة منه من مبحث لغوي؛ نحوي أو صرفي أو بلاغي !

5- من مظاهر منزلة علم النحو في التفسير؛ اشتراطُ العلماء في المفسّر معرفة النحو، إذ جعلوا علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة من أبرز العلوم التي يحتاج إليها المفسّر، لأنّ المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا غرو بعد الذي سبق، أن يكون علم النحو من أبرز العمد التي يقوم عليها تعريف التفسير.

6- مما يدلنا على الارتباط الوثيق بين علم النحو وعلم التفسير = أنّ علم النحو أساساً نشأ في رحاب القرآن الكريم، وبين أحضانه، وفي ظلاله، وبوحي من قدسيته، ووجوب المحافظة عليه، وصيائته من اللحن وفساد الألسنة وتكسرها؛ وأنّ ترعرع النحو ونموّ مباحثه ونضجها كانت في هذه الرحاب، وبالحرص على خدمته وتوثيق نصه والتشرف بالمساهمة في تحليل أساليبه وإيضاح معانيه، بل إنّ السبب المباشر لوضع علم النحو -كما يقول العلماء- هو تسرّب اللحن لألفاظ القرآن الكريم.

7- لا شك أنّ علم النحو هو مفتاح البيان العربي -الذي يُشترط أن يكون ملكة في المفسر- وهو داخل فيه دخولاً أوليّاً وأوليّاً؛ لأنّ المفسّر -كما لا يخفى- يبحث في معاني القرآن، ولا يتأتّى إدراك المعنى إلا عبر التراكيب التي يتناولها بالدراسة علم النحو، فمن هنا كان علم النحو دعامة لعلم التفسير، بل لا ينبغي للمتكلم أن يخوض في تفسير القرآن إلا إذا أحكم أدوات البيان العربي، وأولها وأولها بالعناية: علم النحو.

8- ومما يدلنا أيضا على الاتصال الوثيق بين علم التفسير والنحو = أنّ التفاسير الأربعة التي نصّ عليها ابن باديس - وإن اختلفت منازعها ومشاربها- يجمع بين أصحابها أنهم كلهم زيادة على رسوخهم في الشريعة؛ أئمة في علوم اللغة العربية والبيان، ولا أظنّ أنّ الزمخشري وأبا حيان يحتاجان إلى من ينبه على تعلّقهما القويّ باللغة العربية !

9- ومالي أذهب بعيدا في الاستدلال على العلاقة بين علم النحو وعلم التفسير، وأمامي دليل من أقوى الأدلة على هاتيك العلاقة؛ إذ ليس هنالك أدلّ عليها من كون علم النحو داخلا في ماهيّة وتعريف وحدّ علم التفسير !

10- تفسير القرآن بلا زاد لغوي أمر محرم، بدليل مجموع الآثار التي وردت في المسألة، والتي نقل الطبري في مقدمات تفسيره طرفا طيبا منها، وهي لا تسلم من مقال من ناحية الصناعة الحديثة، لكن تشهد لها نصوص أخرى لا خلاف في صحتها، ولقد أطبق الأصوليون في باب "شروط المجتهد" على أنّ الاجتهاد لا يكون إلا إذا حصّل المجتهد أدوات كثيرة، من أهمها علم النحو، والأداة نفسها (علم النحو) أجمع الكتبة في علوم القرآن والمفسرون في مقدمات تصانيفهم على جعلها من شروط المفسر أيضا.

11- مما يبين العلاقة الوطيدة بين التفسير والنحو؛ أنّ بعض اللغويين والنحويين اختصّوا بتأليف في تفسير القرآن، ذات منهج مستقل، وهي ما يعرف بكتب المعاني وكتب إعراب القرآن، وبهذا تكون قد اكتملت صورة العلاقة التي تجمع بين علمي النحو والتفسير.

12- ولباب الباب من البحث هو أنني أثبتّ -من خلال وُزَيْقَاتِي المتواضعة- أنّ تفسير الإمام بالرغم من كونه تفسيراً إصلاحياً تربوياً هادئاً؛ لم يخل من مسائل لغوية عموماً، ومن مسائل نحوية على وجه الخصوص، ثم أثبتّ أيضاً أنه لم يكن يسوق تلك المسائل النحوية سياقة جافّة ممّلة كما كان يفعل معاصروه من مشايخ الزيتونة الذين انتقد عليهم الإمام مناهجهم في التعليم، وإنما أسلوبه في عرض المسائل النحوية أسلوب انتقائي عملي؛ فهو دوماً يكتفي بالمسائل التي تترتب عليها فوائد عملية استنباطية فحسب، ويُعرض عن

الخاتمة

التنظيرات التي لا طائل تحتها، فلا يأتي بالنحو من أجل النحو، بل يأتي بالنحو من أجل التفسير !

13- من أهم النتائج التي خرجت بها: أنّ ابن باديس ماهر وبارع جدا في توظيف النحو لاستنباط المعاني التفسيرية اللطيفة، فهو يستخرج عن طريق مسائل النحو نكات تفسيرية دقيقة، ويوائم بين التنظير والتطبيق بطريقة عجيبة. والقسم العملي من البحث -ولله الحمد- عامر بالأمثلة والنماذج على هذه الدقائق واللطائف الباديسية المستخرجة عن طريق علم النحو.

14 - أسلوب ابن باديس في الكتابة أنموذج عالٍ غالٍ لمن أراد أن يتخرج في البلاغة وفي صناعة الإنشاء، وابن باديس معدود في البلغاء والأدباء واللغويين، كما هو معدود مع الفقهاء والمفسرين.

التوصيات:

لقد حظي ابن باديس -رحمه الله- باعتراف كبير من قِبَلِ الكتّاب والباحثين، وما زالت شخصيته الثريّة تُلهِم الكتاب إلى يومنا هذا... وبصفتي طالبا في مرحلة الماستر أعترف بقصوري وقلة اطلاعي وعدم أهليّتي للإدلاء بالتوصيات، لكن لما كانت العادة الأكاديمية تفرض علينا ذلك أقول:

أما جانب الترجمة الباديسية فقد نضج واحترق، وأما الجانب اللغوي والتفسيري فقد نال حظّه من الكتابة كذلك، وإن كان دون الأول، ومع ذلك أقترح بعض العناوين في الجانبين المتقدمين، وإن كنت -في الحقيقة- أودّ أن يُعنى بابن باديس من الجهة الأدبية على وجه الخصوص:

- عبد الحميد بن باديس الإمام اللغوي.
 - المسائل الفقهية في تفسير ابن باديس.
 - مظاهر التجديد النحوي في تفسير ابن باديس.
 - أسلوب المساواة عند الإمام ابن باديس.
 - بناء المقالة عند الإمام ابن باديس.
- وقبل وبعد؛ فقد بذلت -بلا من- كثيرا من الجهد والوقت والمال لأحرّر هذه المذكرة، وتغرّيت، وتحملت قساوة المناخ، وسهرت، وعصرت مخي، وقرأت الكثير، وكم كان يتعكّر مزاجي عندما أجلس للكتابة ولا تواتيني القريحة !
- وتوخّيت قدر الإمكان أن أضيف ولو شيئا يسيرا إلى مجال البحث العلمي، ومع كل ذلك أجزم -بحكم بشرتي الناقصة- أنني لم أسلم من الخطأ والسهو والوهم وسوء الفهم، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي وحدها ومن الشيطان اللعين، وما توفّقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهارس

1 - فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	طرف الآية
41	3	آل عمران	نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
136	125	النساء	وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا
120	6	المائدة	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
128-100	15		يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
128	16		يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
122	17	الأعراف	ثُمَّ لَا تَبَيِّنُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
65-63	33		قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
95	15	هود	مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
95	16		أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ
44	2	يوسف	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
-76 93-78	108		قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ

44	103	النحل	لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ
115-82	125		ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
191-95	19	الإسراء	وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
112-82	20		كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ
96-85	23		وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
-83-43 98-95	24		وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
-81-75 134-121	25		رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ
84	31		وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ
42	37		وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
124	53		وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
116-105	56		قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ
79	57		أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ
107	58		وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا
103	79		وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ
128-85	82		وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
135	83		وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ
136	102		وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا
-116-88 129	38	الحج	إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا
101-89	51	المؤمنون	يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا

42	1	الفرقان	تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
133-90	20		وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ
-86 133	27		وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا
-101 133	28		يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا
133-77	29		لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
136-80	30		وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا
117-41	32		وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً
129	33		وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا
125-81	34		الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ
99-41	62		وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً
135-119	63		وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا
113	64		وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا
110	68		وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا
110	69		يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا
110	70		إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
106-92	72		وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ
130	73		وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا
125	74		وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

127	82	الشعراء	وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
28	128		أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ
28	129		وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ
28	130		وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
28	131		فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
44	182		لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ
118	15	النمل	وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
131	17		وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ
107	21		لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ
129	23		إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
106	6	يس	لِسُنْدِرٍ قَوْمًا مَا أُنَذِرُ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ
144-108	12		إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ
44	44	فصلت	وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ

94	20	الشورى	مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ
115	47	الذاريات	وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ
109	49		فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ
109	50		وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ
104	4	الفلق	وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ
122	4	الناس	مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

2- فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	طرف الحديث
73	من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار
62	أَيُّ أَرْضٍ تُقْلُنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا أَعْلَمُ
66-62-49	من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ
65	من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار

3- فهرس المصادر والمراجع

• القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. ابن باديس حياته وآثاره، قسم التفسير، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1388هـ - 1968م.
2. ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد المليي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1980م.
3. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، أحمد طالب الإبراهيمي، دار البصائر للنشر والتوزيع - الجزائر، 2009م.
4. الأخلاق والسيرة، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو محمد الأندلسي، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، عام 1408هـ = 1988م.
5. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م.
6. الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السعيد الزاهري، دار الكتب الجزائر، دون تاريخ.
7. إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ.
8. الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ماي 2002م.
9. الإمام ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير، الدكتور محمد قاسم، دار المعارف، مصر، ط 2، 1979م.
10. الإمام ابن باديس حياته وآثاره، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، ج 1، الطبعة الأولى 1388هـ - 1968م.

11. إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، الدكتور عبد القادر فضيل والأستاذ محمد الصالح رمضان، دار الأمة ط 2010م.
12. الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي كشاف بيبليوغرافي، مسعود بن موسى فلوسي، الطبعة الأولى، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، 1437هـ/2016م.
13. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة: 1420هـ.
14. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ - 1957م.
15. البلاغة العربية.
16. تاريخ ابن الوردي، ط 1، دار المعارف، بيروت، 1975م.
17. تعريف الخلف برحال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، مطبعة بيبير فونتانة - الجزائر، 1324هـ - 1906م.
18. التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426هـ.
19. التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.
20. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
21. جامع الدروس العربية، مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الثامنة والعشرون، 1414هـ - 1993م.
22. جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت، ط 1، 1987م.

23. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، تخفيف: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988م.
24. شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهرى، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ- 2000م.
25. شرح ألفية ابن مالك، ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون 1400هـ- 1980م.
26. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، عبد الله بن يوسف ابن هشام جمال الدين أبو محمد، المحقق: محمد أبو الفضل عاشور، دار إحياء التراث العربي، 1422 - 2001.
27. شرح صحيح البخاري لابن بطلال، ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد-السعودية-الرياض، الطبعة الثانية، 1423هـ - 2003م.
28. شرح قطر الندى وبل الصدى، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، الطبعة: الحادية عشرة، 1383هـ.
29. شرح كتاب الحدود في النحو، عبد الله بن أحمد الفاكهي النحوي المكي، المحقق: المتولي رمضان أحمد الدمير، 1408 - 1988.
30. الشيخ عبد الحميد ابن باديس: السلفية والتجديد، الدكتور محمد دراجي، دار الهدى-عين مليلة- الجزائر.
31. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، 1990.
32. عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الدكتور تركي رابح، ط 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

33. عبد الحميد ابن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
34. عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1996م.
35. عقيدة العلامة عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله - ويليهِ أضاء على ترجمة عبد القادر الراشدي القسنطيني، لأبي عبد الله محمد حاج عيسى الجزائري، دار العواصم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1424هـ - 2003م.
36. قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن يوسف أبو محمد، جمال الدين، دار العصيمي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.
37. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1407هـ.
38. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ.
39. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1421هـ - 2000م.
40. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد ابن باديس، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1388هـ - 1968م.
41. مجموعة من البحوث والمقالات تحت عنوان: ابن باديس موقظ الضمائر، منشورات زكي بوزيد.
42. المحصول، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1418هـ - 1997م.
43. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، 1995م.

44. المستصفي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.
45. مسعود بن موسى فلوسي، الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي كشاف بيبليوغرافي، الطبعة الأولى، الجزائر، جسر للنشر والتوزيع، 1437هـ/2016م.
46. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب-بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م.
47. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1400 هـ - 1980 م.
48. معجم الإعراب والإملاء، إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1983م.
49. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
50. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام، تحقيق مازن مبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر-بيروت، الطبعة السادسة 1985م.
51. مفتاح العلوم، السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ - 1987م.
52. مقال عز الدين قاسي: الإمام عبد الحميد ابن باديس مفسر القرآن حسب علي مَرَاد، المقال ضمن كتاب: ابن باديس موقف الضمائر، منشورات زكي بوزيد.
53. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
54. النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيدة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان-ليبيا، الطبعة الثالثة: 1399هـ-1990م.

55. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، دار صادر-بيروت، ط 1، 1900م.

4- فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	المقدمة
القسم الأول الدراسة النظرية	
المبحث الأول: ترجمة الإمام ابن باديس	
14	المطلب الأول: المحطّات البارزة في حياة الإمام عبد الحميد ابن باديس
18	المطلب الثاني: ابن باديس المفسر
30	المطلب الثالث: ابن باديس اللغوي
38	المطلب الرابع: مباحث اللغة في تفسير ابن باديس
المبحث الثاني: العلاقة بين النحو والتفسير	
45	المطلب الأول: نبذة عن علم النحو وعلم التفسير
51	المطلب الثاني: نشأة النحو في رحاب القرآن
56	المطلب الثالث: افتقار المفسر إلى علم النحو
62	المطلب الرابع: في النهي عن تعاطي التفسير دون زاد لغوي عتيد
67	المطلب الخامس: اشتغال النحاة بالتفسير
القسم الثاني: الدراسة التطبيقية	
المبحث الأول: توظيف المعارف والنكرات في استنباط المعاني	
74	المطلب الأول: توظيف الضمير
77	المطلب الثاني: توظيف (ال) المعرفة في استنباط المعاني
78	المطلب الثالث: الاستنباط باستعمال الاسم الموصول
80	المطلب الرابع: استنباط المعاني بواسطة اسم الإشارة

81	المطلب الخامس: الاستنباط باستعمال الإضافة
85	المطلب السادس: استنباط المعاني عن طريق التكرير
	المبحث الثاني: توظيف أدوات المعاني في الاستنباط
87	المطلب الأول: توظيف الأحرف المشبهة بالفعل
91	المطلب الثاني: استنباط المعاني عن طريق الاستفهام
92	المطلب الثالث: الاستنباط بتوظيف (الاستثناء)
93	المطلب الرابع: الاستنباط بتوظيف حروف الجر ومتعلقاتها
99	المطلب الخامس: الاستنباط بتوظيف حروف المعاني
	المبحث الثالث: توظيف التوابع في الاستنباط
103	المطلب الأول: الاستنباط بتوظيف النعت
104	المطلب الثاني: الاستنباط بتوظيف حروف العطف
108	المطلب الثالث: استنباط المعاني بواسطة التوكيد
109	المطلب الرابع: استنباط المعاني عن طريق البدل
	المبحث الرابع: متفرقات
112	المطلب الأول: التقديم والتأخير
114	المطلب الثاني: استنباط المعاني عن طريق حذف العوامل والمعمولات
117	المطلب الثالث: استنباط المعاني عن طريق التنوين
121	المطلب الخامس: استعمال الصيغ في الاستنباط
131	المطلب السادس: استعمال الجمل في الاستنباط
136	المطلب السابع: توظيف (ظن وأخواتها) في استنباط المعاني
	الخاتمة

الفهارس

الفهارس	
145	فهرس الآيات
150	فهرس الأحاديث
151	فهرس المصادر والمراجع
157	فهرس المحتويات